الإهداء

صاحب خبر السماء ﷺ... نفسي له الفداء... أنفاسُك الطاهرة طالما أقْرَأت الكتاب المجيد... فصُنعَ على عينك -يا سيدي- كلُّ برٍّ أمينٍ مبينٍ رشيد... فخلف من بعدهم -يا سيدي- خلفٌ ورثوا الكتاب...يأخذون عرض هذا الأدنى... طمعًا في السراب...وبَلِيَ القرآن في صدور أقوامٍ كما تبلى الثياب... وانطلق الملأ منهم يتناجون: إن سيرهم على حرف الكتاب لفي ضلالٍ مبين...

فحرَّفوه، ورموا به في غيابات الجب، وكانوا فاعلين...وهم يُصعِدون... يُصعِدون -يا سيدي- ولا يلوون على أحد...واشْتُرِيَ بآيات الله ثمنٌ قليل... وحشرج الصدر لذلك بعويل الأسوار، وسُمِعت آهات نداء الحق خلف أسوار العويل... وملأٌ من المؤمنين للحق كارهون...يجادلون في الحق بعدما تبين، وهم ينظرون... وأحلُّوا قومهم الخُسْر؛ إذ حطموا باستكبارهم التواصي بحقٍ وصبر، وهم لا يشعرون...وصار ما سوى الكتاب المجيد عندهم هو العُجاب... فمسنا حينٌ من الدهر تاهت عنا فيه حقيقة المتاب...وأَفَلَ عنا كل نورٍ صالح، وتركتنا شفقة عبدٍ لله ناصح، ولَغِبنا بعوج ماديات المصالح، ونَأَتْ خلفنا هدايات عليٍّ حكيم... فذهبت الريح.. وبكى الغار...وأَنَّ أُحُد ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج: ١٨]...ألم تدعُهم في أُخراهم؟...وأُخِذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق...

فكان نداؤك -يا حبيبي- يشق الأزمان للولهى، ويغيث أمةً من اضطرام الفتنة حيرى: «هذا الكتاب...فتمسكوا به فإنكم لن تضلوا بعده أبدًا»، فسارع إلى الخيرات كلُّ مُمَسِّكٍ بالكتاب يهدي إلى الحق وإلى طريقٍ مستقيم...يبتغي الحق مظانه، وعلى شدة القروح انقلبوا بنعمةٍ من الله وفضلٍ...لم يمسسهم سوء... فإذا سعيهم مُحَمَّدٌ محمودٌ أحمد... بما علمتهم من الكتاب المجيد... حتى كادوا يكونون عليه -لهفًا وشوقًا- لبدًا...ينتظرون ورود الحوض، وشروق شمسك أمامه...كأن وجهك ورقة مصحفٍ عَلَّمْته...وما زالوا -يا حبيبي- يخرون للأذقان...يبكون ابتغاء شربةٍ هنيئةٍ لا تظمأ بعدها قلوبٌ لهفى طالما ظمئت إلى يدك الشريفة- أبدًا...يرددون مع الحبيب الجليل ابن أم عبدٍ -إذ أمرتهم بالتمسك بعهده-:

اللهم أسالك إيمانًا لا يرتد...ونعيمًا لا ينفد...ومرافقة نبينا محمدٍ ﷺ في أعلى جنان الخلد...

حنين وشكر

إلى: الذين سارعوا في الخيرات، وسابقوا إلى مغفرةٍ من ربهم بإزجاء أفنان المساعدة للكاتب، فازدانت بمَيَسانِ الإحسان، وارتفعت بعز التواضع عبادةً لله الكريم الرحمن:

يتصدر محرابَهم القانت الشيخ الأواب المتبتل/ إسماعيل عبد العال أحمد المريخي الشرقاوي، والشيخ المخبت الأواه المنيب الدكتور/ أحمد علي الإمام -رحمهما الله تعالى-:

أُشربتُ منكما حبَّ التعلق بكل ما اتصل بكتاب الله المبين، فصار كل واحدٍ منكما -في عيني- عبدًا لله محمدًا محمودًا إمامًا للمتقين، وجعلكما الله سبحانه وتعالى سببًا في أن يكون القرآن شعورًا فيَّاضًا يملأ جسدي، وروحًا أمَّارة بالخير تَسري في جوانحي، ونورًا يَشِعُّ في عواطفي، وأَنبتُّما في نفسي أن استظهار امرئٍ لآيات الكتاب هو المِنَّة العظمى؛ إذ قد آتاه الله ﷻ السبع المثاني والقرآن العظيم، والعاقبة للتقوى، فلا يمدن عينيه إلى ما سواه من متاعٍ زنيمٍ(١)، عسى أن ينال الدرجات العلا، وما يكون ذا إلا وليد مجاهدةٍ، تستصحب صبر أولي العزم، فإذا صاحِبُها عارفٌ في عرفات، نبيلٌ في رياض الأرض والسماوات.

شيخاي مهوى الفؤاد وهبة الرحمن:

لطالما رأيت القرآن سميركما غير المفارق تستجلبان به شفاءً لما في الصدور، وهدىً، وموعظةً، وزَيْدًا في إيمانكما المخبتِ الواثق.. فأحببتكما حبَّ الملهوف الوامق.. وإني لأرجو لكما في الآخرة رحمةً من ربكما ترجوانها؛ إن فضله كان عليكما كبيرًا.

ويمضي مرشدًا لمسيرتهم سائرُ شيوخي، فقد حفَّتني بنعمةِ صحبتهم رحمةٌ من ربي أرجوها، وحنانٌ أتفيؤه وزكاةٌ أطلبها وأدعوها، فرأيت فيهم معنى: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾[مريم:٣١] قد تجسدت بشرًا نقيًّا، وتوسمتُ فيهم الصدِّيقية، هاتِفُها: (يا بني! اتَّبعني أهدك صراطًا سويًا)، فقذفوا في قلبي أن بهارج الدنيا -علمًا كانت، أو متاعًا- لا تدخل معي القبر، ولا تُنجي من تبعة الوِزر، ولا ترفع الإصر، وبذروا فيَّ معاني: (ربِّ علمني الكتاب والحكمة، وعلمني ما لم أكن أعلم، واجعل فضلك عليَّ عظيمًا)، عسى أن يُفتح لي بالسير في هذا الصراط فتحًا مبينًا قويمًا.

وإلى: سائر المباركين المفلحين: وهَبَ الله لكم من رحمته، وجعل لكم لسان صدقٍ عليًّا.

(١) الزنيم اللئيم الذي له علامة من علامات الشَّرِّ تُميِّزه، والدعيّ الملصق بغير قومه فلا يُعرف له نسب.

المقدمة

الحمد لله حمدًا يُبَلِّغني رضاه، وإن كان جُهْدُ[١] الحمدِ لا يفي بشكر نعمةٍ واحدةٍ من نعمه.

اللهم تجاوز عن تقصيري في حمدك ومرضاتك. اللهمَّ صلِّ وسلم على النبي المصطفى، والخليل المجتبى، والشفيع المرتجى، وعلى آله وصحبه صلاةً وسلامًا دائمين في كل لحظة أبدًا، عدد خلقك، ورضا نفسك، وزنة عرشك، ومداد كلماتك التامات المباركات، وبعد:

ما الوظيفة النبوية الثلاثية؟

بذل رسول الله ﷺ من الجَهد غايتَه، وتكلف من الوُسْعِ نهايتَه، يَرومُ إبلاغَ رسالة الرحمة للعالمين، وظهر ذلك في عملٍ دائبٍ متواصلٍ ليجعلَ أمته في أعلى مراقي الهداية، ويمنحَها سُلَّم القيادة العلمية والعملية الرحيمة بالبشرية، مؤسِّسًا مبادئ ريادتها على الوحي الذي أمره الله تعالى بتبليغه؛ لينقذ البشرية من الآلام والأوهام، وليصنع لها به سبلَ السلام ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦]، وقد أخذ التبليغُ النبوي للوحي الإلهي ثلاثةَ أشكالٍ تعليميةٍ عمليةٍ، ظهرت في الدعاء الإبراهيمي الإسماعيلي العظيم: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۗ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩]، فتأمل في هذه الأنوار لترى أن هذه الوظائفَ الثلاثَ تبني الإنسانيةَ في مدارج القرب الإلهي، والمعرفة النافعة:

ما الذي يميز كل وظيفة من هذه الوظائف الثلاث؟

وظيفة التلاوة تبين اللفظ القرآني، ويعلم فيها النبي ﷺ الناس أن يخرجوا اللفظ القرآني من مخرجه الصحيح مع إعطائه حقَّه ومستحَقَّه.

وأما تعليمُ الكتاب والحكمة فيُجَلِّي فيها النبي ﷺ معنى الكلام الرباني.

---

(١) الجهد –بضم الجيم– والجهد –بفتحها جعلهما ابن دريد لغتين في معجمه "جمهرة اللغة(١/٤٥٢)" وفرق ابن خالويه بينهما في (كتابه تصحيح الفصيح) تفريقًا يثير السؤال بدلاً من أن يُسلَّم فيه المقال، فقال: "فما كان من هذا الباب على فَعْلَة، بالفتح، فهو على المصدر للمرة الواحدة، وما كان على فُعْلَة بالضم فهو لمقدار الشيء، كقولنا: أكلت أَكْلَةً واحدة، وهي أُكْلَةٌ طيبة، ولقمت لَقْمةً واحدة، وهي لُقْمة "، فقد يصح ذلك في بعض الكلمات لا في جميعها، وإذا نظرت إلى الاستعمال القرآني تجد التعبير القرآني المميز في قوله تعالى: ﴿أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ﴾ خمسة مواضع، مصدر الفعل جَهَد يدل على أنهم أقسموا بأتعب أيمانٍ وأشقها يمكن أن تصل إليها ألسنتهم، وفي موضع واحد: ﴿لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩] فجُهْد بضم الجيم اسم المصدر فهو المقدرة والاستطاعة والطاقة، وقال الجوهري في معجم (الصحاح: ٢/٤٦٠): "الْجَهْدُ وَالْجُهْدُ: الطَّاقَةُ. قال الفراء: الْجُهْدُ بِالضَّمِ الطَّاقَةُ. والجَهْدُ بالفتح من قولك: اجْهَدْ جَهْدَكَ فِي هَذا الْأَمْرِ، أَيْ ابْلُغْ غَايَتَكَ. وَلَا يُقَالُ اجْهَدْ جُهْدَكَ. وَالْجُهْدُ بِالْفَتْحِ الْمَشَقَّة".

وبهما تَخْضَرُّ أشجارُ التزكية، فتُنْبِتُ في الإنسان والحياة من الفضائل كل زوجٍ بهيج؛ إذ التزكيةُ تنير البواطن، وتسكب فيها من معين الكتاب الهادي، وإشراقه البهي السابغ، وتجعل الأمور النظرية والفكرية واقعًا عمليًّا تطبيقيًّا، فالتزكية هي التطهير والنماء، فالتطهير من الرذائل، والنماء للفضائل.

وبهذه الوظيفة الثلاثية للرسالة تُصْبَغُ الحياة والكون بصبغة الله -تعالى مجده-.. إنها صبغة الله التي تؤنس العالم من وَحشتِه، وتخرجه إلى النور من كُرَبِه وظُلْمتِه.. أم تقولون: إن ثمة ما يمكن أن يوازي الصبغة الإلهية مما يقدمه الحائرون؟ ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨].

ما علاقة هذه الوظيفة الثلاثية بالقرآن الكريم؟

الوظائف الثلاث تنبثق عن القرآن الكريم لفظًا ومعنى وتطبيقًا، وأعظم ما يفعله المسلم بعد إتقان اللفظ فهم المعنى حتى يقوم بالتطبيق.

ما حدود المعاني التي تنبثق من الكلمات القرآنية؟

معاني الكلمات القرآنية لا تنفد، كما قال ابن القيم رحمه الله: "كلما ازدادت البصائر فيه تأملاً وتفكيرًا زادها هدايةً وتبصيرًا، وكلما بحثتْ معينَه فجَّرَ لها ينابيعَ الحكمة تفجيرًا"(١).

ولكن استنباط هذه المعاني التي لا حدود لها واستلهامها ينبغي أن يكون منضبطًا سائرًا على سنن من طرق العلم قويمة، وسبل من الهدى مستقيمة، تضبط القول في كلام الله بما أراده الله ﷻ منه، ولذا نحتاج إلى أصولٍ تدلنا على معانيه وتفسيره وتأويله حتى لا نخرج عن المعاني التي أرادها الله ﷻ إلى معانٍ يزينها الشيطان والأهواء البشرية.

ولقد قام النبي ﷺ بهذه الوظيفة الثلاثية خير القيام وأحمدَه، فـ «تلقى الجيلُ الأولُ منه ﷺ القرآن الكريم، وتلقى الجيلُ الثاني من الجيل الأول، وهكذا دواليك»(٢)حتى وصل إلينا لننال حظنا من تلاوته، وفهمه، وتدبره، وتقديمه منارَ هدايةٍ للبشرية في المجالات الحيوية.

(١) مقدمة مدارج السالكين (١/٢٧)، وهي مقدمةٌ مترعةٌ بالخير المبين، وقوله: بحست، أي فجرت بالبحث والتنقيب.

(٢) مقدمة الفوز الكبير للدهلوي (ص: ١٢) ولفظه:" فإن حضرة الرسول لقن القرآن المجيد على القرن الأول (الصحابة)، وهم بلغوه إلى القرن الثاني (التابعين)، وهكذا بلغ القرن الثاني إلى الثالث، والثالث إلى الرابع...".

معرفة صحيح التأويل تكملة لحفظ كلمات التنزيل:

ما العلاقة بين معرفة التأويل وكلمات التنزيل؟

كلمات التنزيل هي الألفاظ القرآنية التي وعد الله ﷻ بحفظها فقال تعالى ذكره: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢]،

ومعرفة التأويل يعزز حفظ كلمات التنزيل، وقد جمع الله ﷻ بينهما في قوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، لتبين للناس اللفظ الذي نزل إليهم، ولتبين لهم المعنى، ولعلهم يتفكرون في المعنى الذي لا تحتاج إلى تبيينه؛ لوضوحه أو لإمكانهم أن يفهموه.

ويزيدك فهمًا وبيانًا تقعيد إضافي يقرره الله ﷻ في السورة نفسها، فيقول: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤]؛ فالناس لا يعرفون ما نزل إليهم حتى يتقنوا تلاوة كلمات التنزيل، ويدركوا تأويلها الصحيح.

هنا لا بد أن ينفق كلُّ إنسانٍ في فهم القرآن المجيد حَسَبَ سَعتِه الفكرية.. لذا رأيت ثلةً من الأولين، وثلةً من الآخرين يسارعون قديمًا وحديثًا في كتابة ما يبين للناس سَعةَ معانيه، ويبلغهم مرادَ ربِّهم من كلامِه، ويُظْهِر لهم حُلَلَ مقاصدِه ومراميه.

ما زالت الكتابات في هذا المضمار العظيم تترى.. وستظل تتجدد، تُدهِشُ الورى، وترفع الراغبين منهم إلى الذُّرا، ففي كتابه -تعالى ذكره- تِبيانٌ للسعادة القصوى: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٢، ٣].

الحرب ضد القرآن.. حربٌ لتحريف التنزيل، وأخرى للتضليل في التأويل:

ما نوع الحرب التي يشنها إبليس وجنوده وقبيله من الإنس والجن ضد القرآن؟

يحتشد القبيل الشيطانيُّ ضد ذلك المقصد المسَدَّد. إنه القبيل المجرم الذي يحاول أن يصد الذرية الآدمية عن أعظم مصادر سعادتها... وتتساءل: كيف يحاول ذلك؟

يحاول أن يوقع الناس في ترك تعليم ألفاظ التنزيل.

ولأنه لا يستطيع مع الجميع أن يفعل ذلك فإنه ينحط بهم دَرَكة أخرى إلى **تحريف التأويل**، فماذا صنعوا؟

لقد ألبسوا معانيَ الكتاب أوهامَ الأضاليل، وخلطوا بين الحق ورجس الأباطيل.

ذلك دأبُ جنودِ إبليس أجمعين.. ولا تخطئ عينك أن تراهم يسيطرون على القوى الثلاث الكبرى:

القوة العسكرية، فيصيرون جندًا لإبليس حيث وصفهم الله ﷻ بذلك في قوله: ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ [الشعراء: ٩٥]، فهذا هو المدلول الدقيق للوصف بالجندية.

والقوة السياسية، فيقومون بدور حزب إبليس والسياسي، كما بصَّرت بهم سورة المجادلة في قوله جلَّ ذكره: ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩]، فهذا هو المدلول العُرفي المعاصر لوصفهم بالحزبية.

والقوة الإعلامية التي تعارض الوحي الإلهي وتناوئ حملته بالوحي الشيطاني، وهو ما أشار إليه ربنا ﷻ بقوله: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١].

نعم ذلك دأْبٌ لا يخلف منذ حلف كبيرهم على تنفيذ خطته، وتحقيق أهدافه فقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣]، ولقد استطاع القبيل الإبليسي أن يحتال فئامًا من البشر عن دينهم؛ فقد خطب عنه سيدُ خطباء الدنيا والآخرة محمَّدٌ ﷺ وهو يروي عن ربه ﷻ فيقول: «وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ»(١).

وفي مقابل الجهود الشيطانية النشطة لتحريف التأويل ترى ما يُلَقِّيك نضرة وسرورًا: إنها قومة جليلة مهيبة قامها الراسخون لله مثنى وفرادى يتفكرون في القرآن وكلماته، ويبحثون عن التأويل الصادق لآيات كتابه وبيناته.

قصة تأليف هذا الكتاب:

في سبيل الوصول إلى الفَهم المستقيم لكلمات القرآن العظيم أُلزمَ طلابُ الجامعات في مرحلتي الدراسات الجامعية والعليا بدراسة مقررٍ في أصول التفسير وقواعده؛ لمسيس حاجتهم لمعرفة فواتح فهم القرآن(٢)، وأصول تدبره، وقواعد تفسيره، فألزمت طلابي بتدارس كتاب (الفوز الكبير) لولي الله

(١) مسلم (٧٨٦٣)، والاجتيال قرين الاختيال، وهو بالخاء لفظ وارد في الكلمة، ومعنى اجتالتهم استخفت عقولهم فذهبت ببصائرها.

(٢) لشيخنا الشيخ الأجل الأستاذ الدكتور/ أحمد بن علي الإمام –رفع الله مكانه في الفردوس الأعلى– كتاب في غريب القرآن عنوانه: مفاتح فهم القرآن.

أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي (ت١١٧٦هـ) ﷺ ، فلما رأيتهم وجدوا في رحلتهم في مدارسته شططًا، وأكثروا فيه غلطًا، عزمت على التيسير عليهم بكتابة مؤلَّفٍ أسميته: (التنوير).

ما الأهداف التي لأجلها ألف المؤلف كتابه: التنوير في أصول التفسير؟

ألخصها في الآتي:

١) رجوت أن يُقَرِّب البعيد.

٢) ويثيرَ المكامن الخفية للعقل الرشيد.

٣) ويُشعلَ قوة التدبر لمن يستنبط المعنى الصحيح، فيستعين به في حياته على التجديد.

٤) ويجمعَ الأصولَ العامة للتفسير.

٥) ويحميَ الأجيال من الضياع في فهم النص، أو العبث، أو التحريف، أو التغيير.

تلكم بعض بواعث تأليف هذا الكتاب... فهو محاولةٌ ضمن تلك المحاولات التي تتشرف بانتسابها إلى الكتاب الكريم.. كان ذلك أثناء تدريسي في جامعة حضرموت ثم في جامعة ذمار في اليمن، ولمَّا قمت بالتدريس أستاذًا في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية التابعة لجامعة قطر لقيت من تدريسي لكتاب (التنوير) عُسْرًا لطوله، وكثرة مباحثه، وتفصيلاته، فاختصرته في موجزٍ سميته (الأساس) عسى أن يكون لأهل المصفوفة الجامعية الحديثة أقربَ رحمًا، وأسهلَ منالاً، وأكثر غُنْمًا، ثم بدا لي بعد طول التدريس أن أضيف إليه عددًا من المباحث، وأسهل وَعْرَه، وأذلل صعوبته بزيادة الأمثلة، والشرح، فعاد مجددًا يماثل الأصل، ثم إني أذعنت لفكرة دمج (التنوير) في (الأساس) بعد أن رأيت الحاجة ماسة لمباحث الكتابين، فكانت هذه الطبعة المفصلة التي حوت الكتابين عسى أن يفتح الله جل وعز لنا مستقبلاً لصياغة متن مختصرٍ منه، أو يعود الشيخ الطالب زيدان —وفقه الله– لنظم مباحثه الأصلية دون اكتفاء بالقواعد.

وجهة نظر حول التأليف العلمي المنهجي المعاصر:

كان الأولى –في نظر الكاتب– أن يدرس طلاب الدراسات الإسلامية الجامعية والعليا كتابًا من كتب علمائنا الأفذاذ في هذا الباب ككتاب الزركشي (البرهان)، أو كتاب السيوطي (الإتقان)، أو كتاب ابن عقيلة المكي (الزيادة والإحسان) بدلاً من تأليف شيءٍ جديد، إذ تحوي هذه الكتب علمًا جمًّا لا يغني عنه شدو المتأخرين في هذا الباب حتى قسمها كثير من المعاصرين إلى مجموعة من العلوم والكتب، وتصرفوا فيها فما رؤيَ الفرع كالأصل بأي حال، وكم رجع الباحثُ الطرفَ في

تأليفٍ كالبرهان في علوم القرآن فعجب من كثرة فوائده، وعمق قضاياه، وأصالة مصطلحاته...ولا يعني هذا أن الباحث يردد فحوى قولهم: ما ترك الأول للآخر شيئًا؛ إذ القرآن لا تنقضي عجائبه، وما زلنا نحتاج إلى ذكر المستجدات العلمية التي تزيد القرآن عظمة وسموًّا، كما أن تحرير كثيرٍ من المباحث حادٍ إلى مؤلفات متجددة...ولولا فتور الهمم، وضعفها في استيعاب لغة العلم في أصوله، وتطلب الناس إلى السهولة في العرض لكانت كتب المتقدمين رائدة في ميادين التعليم الأمين.

حول منهج الكتاب:

١) اجتهدت في التقسيم الكلي الذي يجمع أشتات هذا الفن، ثم ستراني أورد بعض القواعد التفسيرية مما ذكره النبلاء من محرري هذا العلم، وسيتلقاك –أيدك الله– اجتهادي في صياغة بعض هذه القواعد، وذلك شيءٌ كان جمعه وبيانه بعد أن عالجت بعض قضايا هذا العلم لأمدٍ، وهذه القواعد لا أدعي فيها الانفراد بل انقدحت في الذهن الكليل في أثناءِ مطالعةِ كتب فرسان العلماء السابقين –رحمهم الله–، وإنما أسير خلف ركابهم ذا عَرَجٍ. وازدادَ ذلك صقلاً وتسديدًا بالمدارسة القرآنية لحذاق طلبة العلم، حيث تمَّ تقويم كثيرٍ من العوج وإصلاح بعض العرَج.

٢) ولأن الكتاب كتاب منهجي مقرر على طلبة الدراسات الجامعية والعليا فقد روعي فيه المنهجية المنطقية العلمية الرقمية لا الخطابية...على أن يلزم الطلاب بالتدرب على الاطلاع على مباحث رديفة في الكتب الموسوعية كتفاسير الطبري، والرازي، والقرطبي، والتحرير والتنوير، أو كتب علوم القرآن كالبرهان، والإتقان، والزيادة والإحسان.

٣) بما أن المادة تتحدث عن أصول التفسير فقد فُصِّلت مسائل الكتاب إلى أصول حتى تتسق المنهجية، وترسخ المفردات في ذهن القارئ.

٤) أطلت النفس فيما يحتاج إلى الإطالة فيه علميًّا أو نفسيًّا، وذلك كما في موضوع شرف علم التفسير، أو عند ذكر بعض رجال مدارس التفسير يذكر الكاتب شيئًا يدل على علمه أو أدبه أو عبادته باختصار شحذًا للهمم في الاقتداء وإتباع العلم العمل، وحتى تمتلئ نفسية الطالب بأهمية هذا العلم، وتستصحب اللمسات التربوية مع تحرير المسائل العلمية.

٥) ذكرتُ أمثلة على الضوابط والقواعد التفسيرية المندرجة تحت أصل معين دون محاولة الحصر، إذ ذلك ينبغي أن يفرد بكتابٍ خاص بالضوابط التفسيرية، ومنها ما يسمى علم الوجوه والنظائر، وعلى سبيل المثال: فإن الضوابط المندرجة تحت أصل: يفسر القرآن بالعربية يمكن أن نجدها في غريب

القرآن، لأبان بن تغلب (ت ١٤١هـ)، ومعاني القرآن، لمحمد بن الحسن الرواسي (ت ١٧١هـ)، والعين، للخليل (ت ١٧٥هـ)، وغيرهم من علماء القرآن الثاني، وغريب القرآن ليحيى بن المبارك اليزيدي (ت ٢٠٢هـ)، وغريب القرآن، للنضر بن شميل (ت ٢٠٣هـ)، ومشكل القرآن، لقطرب (ت ٢٠٦هـ). وغيرهم من علماء القرن الثالث، والخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني (ت٣٩٢هـ) وغيره من علماء القرن الرابع، وفقه اللغة لأبي منصور الثعالبي (ت٤٢٩هـ)، وغيره من علماء القرن الخامس، والمثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لأبي الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن الأثير الموصلي (ت٦٣٧هـ)، وغيره من علماء القرن السابع وصبح الأعشى في صناعة الإنشا لأحمد بن علي القَلْقَشَنْدي(ت٨٢١هـ)،...كما نجدها مبثوثة في كتب التفسير، وكتب أصول الفقه.

٦) التزمت بالاستشهاد بأقوال المفسرين في كتبهم المشهورة لإيضاح الأصول.

٧) لأن أصول التفسير إنما هي قواعد وضوابط أُخذت من التفسير ومن مجموعة علومٍ خدمت القرآن الكريم فقد فَصَّلت من المواضيع المشتركة بين أصول التفسير وتلك العلوم ما ظننت أن المفسر بحاجةٍ إليه لإبراز بعض مرتكزات قضايا أصول التفسير، دون محاولة الاستيعاب التي تفضي للكلام فيما ليس له كبير تعلقٍ بالتفسير لعدم شيوعها أو الاحتياج الملح إليها في التفسير، وإن ذكرها بعض النحاة في توجيه بعض الآيات، وبذا فالكتاب كالمقدمة المتضمنة إشارات لأهم المواضيع لا غير.

٨) تكررت بعض المواضيع التي تتجاذبها مع أصول التفسير مجالات أخرى في علوم القرآن كالقصص في القرآن الكريم، وإعجازه...والمعلوم أن هاتين المادتين: أصول التفسير وعلوم القرآن بينهما تداخل شديد...مما يدل على شدة التداخل بين الفنين، وقد اجتهد الكاتب في محاولة حصر ما يتعلق بأصول التفسير.

٩) بل إن القواعد يمكن تقسيمها إلى عامة: فكل ما في كتب علوم القرآن هي قواعد وأصول تفسيرية، وخاصة: وهي كالتي عنون لها السيوطي: النوع الثاني والأربعون: في معرفة قواعد يحتاج المفسر إلى معرفتها[١]، وقد أكتفي بالإشارة لما تيسر من ذلك إشارة لتكون كالمفاتيح، ومن أهم الأسباب المنهجية للاكتفاء بالتمثيل: ضرورة إلزام الطالب بالرجوع إلى الكتب المرجعية لزيادة التتبع حتى يظل الارتباط بمصادر العلم وأمهاته قائمًا.

---

(١) انظر: الإتقان (١/ ٥٤٧).

وستراني حاولت أن أخوض لجُجَ مسائلِ هذا العلم خوضَ المتهيبِ الحذورِ لا خوضَ الجريءِ الجسور، ولذا فما ارتضيتُ طبعة هذا الكتاب الأولى ولا الثانية عندما كان الكتاب منفصلًا تنويره عن أساسه، وإني لأرجو أن تكون هذه الطبعة الثالثة معبرةً عن المراد، محققةً ما رُمتُه من السداد والرشاد.

وأرجو أن تجدَ في هذا الكتاب رُطَبًا جَنِيًّا، وجديدًا هنيًّا، وذلك حين يلوح لك نور المناقشات لبعض الموضوعات نحوَ ما تجده في الكلام عن الإسرائيليات باعتبارها مصدرًا لإظهار التصديق القرآني لها أو الهيمنة على محتواها، ولعلك أن ترى ثمراتٍ مختلفًا ألوانها عند الكلام عن حُجُب النقل التاريخي الذي حال دون تدبر القرآن المجيد، وبيان مقاصده الكلية والجزئية وأنواره الهادية في الحياة، وإدراك محاور القرآن العظيم ومقاصده، ولعلك أن تستروح فيه إلى بعض النقول التقعيدية العظيمة عن أئمة الهدى من الصحابة فمن بعدهم رضي الله عنهم نحو ما تم نقله عن ابن مسعود رضي الله عنه في مبحث التفسير بالرأي.

فعساك تنظر بعين العدل فيما تجده ها هنا؛ وتذكر قول الحسن بن رَشِيق القيرواني (ت ٤٥٦هـ) «المعاصرة حجاب»، ولربما أنست فيها بتحرير مقالٍ لم يتحرر على ألسنة أفذاذ الرجال، فأبو محمد عبد الله بن قتيبة رحمه الله ممن صحبت أنفاسه منذ كنت صغيرًا في مقدمةِ، وقد قال في مقدمة كتابه (الشعرِ والشعراءِ): «ولا نظرتُ إلى المتقدمِ منهم بعينِ الجلالةِ لِتَقَدُّمِهِ، وإلى المتأخرِ منهم بعينِ الاحتقارِ لِتَأَخُّرِهِ، بل نظرتُ بعينِ العدلِ على الفَرِيقَيْنِ، وأعطيتُ كُلاً حَظَّهُ»[1].

وهذه الطبعة الثالثة جعلتها الطبعة المرتضاة لهذا الكتاب، وأما ما قبلها فليس إلا تمهيدًا أشبه بمذكراتٍ صيغت ليتبلغ بها دراسو الجامعات، ولعلك تجدني اتبعت في هذه الطبعة في تحرير الأقوال سببًا، وأترعتُ فيها مبحثًا ومطلبًا، فعلى سبيل المثال: ستجد عند الكلام عن منهج التفسير بالرأي كيف أَثَرْت الأرض وسقيت الحرث، فانقلب النقل في الطبعتين السابقتين عاليه سافله بعد تحرير القول أثناء مدارسة الكتاب، فأرجو أن يخرج لك الآن مسلَّمًا لا شية فيه.

وزيَّن هذا الكتابَ فضيلةُ الشيخ الهُمام ذي القلب الريان، والقلمِ الهتَّان/ الطالب زيدان بن محمد العاقب بن الإمام الجكني –جزاه الله خيرًا، ورفعه مكانا عليًا في الدارين– حيث نظم فيه أهمّ

(١) الشعر والشعراء (١/٦٤).

قواعد هذا الكتاب، فازدان بما سَطَّره يراعُه، فألحقت النظمَ به بعد كل قاعدة، ثم جُمِعَت الأبيات في آخره ليكون أشبه بمسك ختامٍ، وتغريد يمام.

اسم الكتاب:

كان اسم الكتاب الذي ألفته أولاً في أصول التفسير: (التنوير)، وزادت عدد صفحاته على السبعمائة، فلما بدا لي ضعف الهمم، كررتُ عليها مجددًا فاختصرتها إلى ما آل إليه أمره حين طُبع، وحذفت كثيرًا من الأمثلة والمسائل الموجودة في الأصل، والله المستعان على القبول، ثم ألفت (الأساس) مختصرًا من (التنوير) ولما كان حظ (الأساس) أعلى في التدريس والتدارس، وقمت بتحرير مباحثه ألح علي بعض الفضلاء ممن تدارست معه الكتاب من ألبانيا ألا أنبذ التنوير مكانًا قصيًّا، فبدا لي أن أقوم بدمج الكتابين في كتاب واحد سميته (الأساس والتنوير في أصول التفسير)، وهو هذا الكتاب الذي بين يديك.

وإني لأرجو بهذا الكتاب أن يكتبَ اللهُ ﷻ لي شرفَ الانتساب إلى القرآن بفضله ولطفه وكرمه -جلَّ في علاه- إنه كان عفوًا غفورًا، ولم يزل على كل شيءٍ قديرًا، وأن يلحقني ربي بالصالحين، فأنعِمْ به سبحانه وليًا ونصيرًا، فهو الذي وصف كتابه بقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤]﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ [الفرقان:٥٢].

اللهم اقذف في قلبي رجاءك، واقطع رجائي عمن سواك حتى لا أرجو غيرك...اللهم ما ضعفتُ عنه قوتي، وقصرُ عنه عملي، ولم تنتهِ إليه رغبتي، ولم تبلُغْه مسألتي، ولم يجر على لساني مما أعطيت أحدًا من الأولين والآخرين من اليقين فامنن به عليَّ يا رب العالمين...واجعلني من أهل القرآن، وارفعني به مكانًا عليًّا، وكن بي حفيًّا، يا حيُّ يا قيوم، يا ذا الجلال والإكرام، يا أرحم الراحمين.

أ.د / عبد السلام مقبل المجيدي

s1435y@gmail.com

الشجرة العامة لمباحث علم أصول التفسير:

الشجرة العامة لمباحث علم أصول التفسير تمدنا بالصورة الكلية لهذا العلم، فما أغصان هذه الشجرة؟

الجواب: أرجعتُ أصولَ التفسير الضرورية إلى خمسة أقسام، لا تخرج موضوعات هذا العلم عنها، وهي:

القسم الأول: مبادئ التفسير والمفسِّر، وفيه أسس علم التفسير، وعلمِ أصوله، وشروط المفسر وآدابه.

القسم الثاني: أهم مصادر التفسير (أمهات مآخذ التفسير).

القسم الثالث: علوم القرآن التي تؤدي إلى فهم الخطاب القرآني.

القسم الرابع: القواعد التفسيرية: وهي متفرقةٌ في الأقسام السابقة جميعها، إذ نجد في كل قسم مجموعةً من القواعد، إلا أنك سترى في الكتاب مُبَوءًا خاصًّا للقواعد التي تكثر الحاجة إليها.

القسم الخامس (قسم ملحق): قواعد في مناهج المفسرين.

القسم الأول: مبادئ التفسير والمفسِّر، وفيه أسس علم التفسير، وعلمِ أصوله، وشروط المفسر وآدابه:

ما العَلاقة بين علم أصول التفسير وعلم التفسير؟

الجواب: هي ذاتها العَلاقة بين كل علم وأصوله، فهي علاقة الوسيلة بالغاية، والآلة بالمقصَد، وحتى نتعرف إلى علم أصول التفسير لا بد من التعرف إلى غايته ومقصده أولاً، وهذا استدعى أن نتكلم عن أسس علم التفسير لتتكون الصورة المتكاملة عن علم أصول التفسير.

وتفصيلُ ذلك يتجلي في ثلاثة فصول:

الفصل الأول: أسس علم التفسير.

الفصل الثاني: أسس علم أصول التفسير.

الفصل الثالث: شروط المفسر وآدابه.

قرآن يتلىٰ لإنسانية ترقىٰ

الفصل الأول: أسس علم التفسير

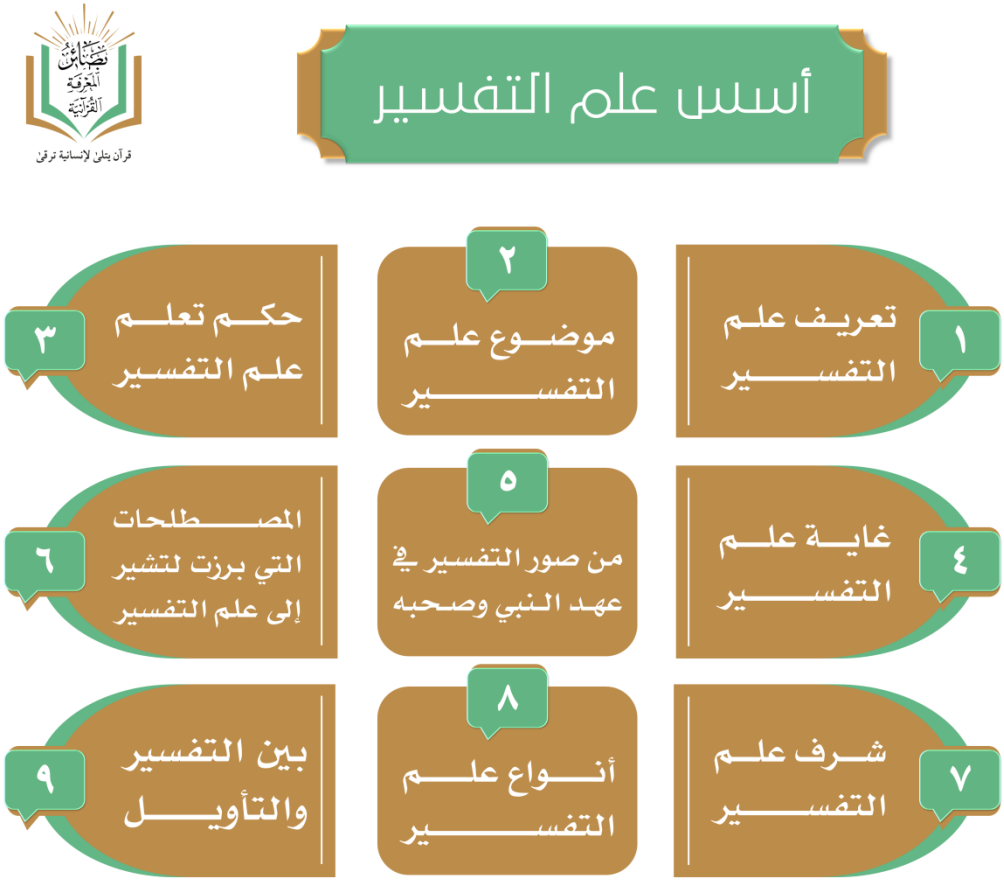

الأساس الأول: تعريف علم التفسير:

ما تعريف (التفسير) لغة واصطلاحًا؟

فأما في اللغة: فالتفسير تفعيلٌ مأخوذٌ من المعاني الآتية:

١) التفسير (تفعيل) مأخوذ من الفَسْر، وهو البيان "فَسَر الشيءَ يفسِرُه، بالكسر، ويَفْسُرُه، بالضم، فَسْرًا وفَسَّرَهُ: أبانه"[١] فهو يستعمل في الكشف والإظهار للمعاني المعقولة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣] أي

(١) لسان العرب (٥/ ٥٥).

أحسن بيانًا وتفصيلاً، وظهورًا في معناه"[١]... و"الفَسْرُ: كشف المُغَطّى، والتَّفْسير كَشف المُراد عن اللفظ المُشْكل"[٢].

٢) من التفسرة، وتعني الكشف الحسي، والتفسرة فهم القائف وهو من يقص الأثر، فيفهم لمن ترجع هذه الآثار، وإلى أين يصل[٣].

٣) وقيل هو مقلوب كلمة (تسفير)، فكلمة: (فسر) أصلها (سفر)، كما في جبذ وجذب وصقع وصعق، ونقد ذلك الآلوسي ﷺ، فقال: "والقول بأنه مقلوب السفر مما لا يسفر له وجه"[٤] **مع أن لغة العرب زاخرة بالكلمات المقلوبة التي لها معنى واحد...**[٥].ومعناه أيضًا: الكشف. يقال: سَفَرَتِ المرأة عن وجهها، فهي سَافِرٌ، وأسْفَرَ وسفرَ الصبحُ يعني أضاء، وفي الحديث: «أسفروا بالفجر، فإنه أعظم للأجر»[٦]، والسفرُ إماطة الحجاب عن المستور سواء أكان إماطةً لحجاب الليل عن الدنيا أم لحجاب المرأة عن وجهها.

وأشار الراغب (٥٠٢هـ) ﷺ إلى تقارب معنى الفسر والسفر كتقارب لفظيهما، لكنه ميز بينهما بأن:

السفر: كشف الغطاء ويختص ذلك بالأعيان نحو: سفر العمامة عن الرأس، والخمار عن الوجه...والإسفار يختص باللون نحو: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ﴾ [المدثر: ٣٤] أي: أشرق لونه، وقال تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ﴾ [عبس: ٣٨]، وأسْفَرَ وجهه حسنًا أشرق، والسفر هو: الكتاب الذي يسفر عن الحقائق وجمعه أسفار، قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ﴾[الجمعة:٥]، وقوله تعالى: ﴿بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ﴾ [عبس:١٥-١٦] فهم الملائكة، والسفرة: جمع سافر ككاتب وكتبة، والسفير: الرسول بين القوم يكشف ويزيل ما بينهم من الوحشة، فهو فعيل في معنى فاعل

---

(١) انظر: الكليات (ص:٢٦٠).

(٢) لسان العرب (٥/ ٥٥).

(٣) ومن التفسرة نظر الطبيب إلى الدم مثلاً لكشف علله، فإذا قال: تفسرة ما خرج منك تشير إلى مرض كذا وكذا، فأراد بالتفسرة ما ينتج في نظر الطبيب، وهو ما يسمى اليوم التحليل المخبري، فأراد بالتفسرة ما ينتج في نظر الطبيب.

(٤) روح المعاني (١/ ٤).

(٥) انظر: أدب الكاتب (ص: ٣٨٢).

(٦) مختار الصحاح (١/ ٣٢٦)، والحديث رواه الترمذي (١٥٤)، وقال: «حديث حسن صحيح»، وصححه الألباني، ورواه أحمد (١٧٣١٨)، وصححه الأرناؤوط.

والسفارة : الرسالة فالرسول والملائكة والكتب مشتركة في كونها سافرة عن القوم ما استبهم عليهم، أما الفسر فهو: إظهار المعنى المعقول(١).

فإذا كان السفر: كشف الغطاء، والفسر: إظهار المعنى المعقول...فكلاهما فيه معنى الإيضاح والبيان، ولذا جعل ابن فارس جميع الأقوال تؤول إلى معنى واحد هو بيانِ شيءٍ وإيضاحِه(٢).

وأما في الاصطلاح: فقد اخْتُلِفَ في تعريف علم التفسير على أقوالٍ، نختار منها هذين التعريفين:

التعريف الأول: تعريف أبي حيان (ت٧٤٥هـ) بأنه: «علمٌ يُبْحثُ فيه عن كيفيةِ النطقِ بألفاظِ القرآن الكريم، ومدلولاتِها، وأحكامِها الإفراديةِ والتركيبيةِ، ومعانيها التي تُحمَل عليها حالةَ التركيب، وتتمات ذلك»(٣)، وكما ترى فإن أبا حيان رحمه الله أتى في التعريف بالجنس، وهو قوله: "علمٌ"، ولكنه لم ي يلتزم بالحدود المنطقيةِ في التعريف، بل ذكر خمسة مجالات تشكل ماهية التفسير، وذلك يدل على خروجه عن التقليد؛ لأنه رأى أن التعريفَ يصبح واضحًا عند ذِكْرِ المجالات الكبرى لعلم التفسير، وهي التي تشكِّل أمهاتِ موضوعات علم التفسير، وقد شرح بعد ذلك تعريفَه مبينًا معاني هذه الجمل التي ساقها، فلنعرض لذلك استفادة منه وتصرفًا فيما قاله:

(عِلْمٌ): هو جنس يشمل سائر العلوم.

(يُبْحَثُ فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن): دخل فيه علم الأداء القرآني من تجويد وقراءات، وتراه أدخل علم الأداء القرآني، وإن كان عن واقع التفسير هذه الأيام عنها بمعزل؛ ليبين لك أنه لا يُقبَل مُفَسِّرٌ لا يتقن أداء الألفاظ القرآنية.

(ومدلولاتِها): عنى به علم اللغة، فتدخل فيه المفردات العربية، ولا ينبغي لك أن تكتفيَ بما هو في المعاجم حتى يَحْتَفَّ بالسياق النصي (الذِّكْري)، والسياق الحالي (التاريخي)، وبذا يسهل عليك

(١) انظر: مفردات القرآن (٦٨٩/١)، و(٢/ ١١١٥)، وقد نقله الزركشي في البرهان(٢/ ١٤٨).

(٢) معجم مقاييس اللغة (١٥٦/٤).

(٣) البحر المحيط (٦/١)، وهو التعريف الذي ارتضاه صاحب الكليات، ونقله بتمامه. انظر: الكليات (ص:٢٦٠)، وقد اكتفيت بذكر تعريف (التفسير)، ولم أتكلم على كلمة (علم) رغبة في الاختصار، وعدم تشتيت الذهن بأمرٍ نظريٍّ محض.

أن تفرق بين كلمة: النساء في قوله تعالى مجده: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [آل عمران: ١٤]، وبين النسيء في قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: ٣٧].

(وأحكامِها الإفرادية): وتظهر من علم التصريف.

و(التركيبية) وهذا يشمل علم الإعراب وعلم البيان وعلم البديع.

(ومعانيها التي تُحمل عليها حالة التركيب): ويشمل ذلك الحقيقة والمجاز، فقد يقتضي التركيب بظاهره شيئًا ويَصُدُّ عن تأويل النص به مانعٌ، فيكون مجازًا، ويمكن أن يضاف إلى ذلك: معانيها الفقهية، أو العقدية، أو التربوية، ويلحق به بحث قضايا الإعجاز القرآني من غير الإعجاز البياني البلاغي؛ فإنه مندرج فيما قبله.

(وتتمات ذلك): فيدخل فيه معرفة النسخ، وسبب النزول، وقصة توضح الآيات، ومقاصد القرآن، ونحو ذلك.

التعريف الثاني: علمٌ يُبحث فيه عن أحوال القرآن المجيد، من حيث دلالتُه على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية[١]، وكما ترى فإن هذا التعريف الوجيز تَكَوَّن من جنسٍ، وثلاثة فصولٍ، وقد وفَّى بالمطلوب في تحديد شخصية هذا العلم.

وقولهم (بقدر الطاقة البشرية): "لبيان أنه لا يقدح في العلم بالتفسير عدم العلم بمعاني المتشابهات، ولا عدم العلم بمراد الله في الواقع ونفس الأمر"[٢].

ولذا قال في منظومة التفسير:

علم به يبحث عن أحوال كتابنا من جهة الإنزال[٣]

ونحوه.....

الأساس الثاني: موضوع علم التفسير:

ما موضوع علم التفسير؟ وكيف وصفه النورسي رحمه الله ؟

(١) وهو تعريف ذكره محمد بن علي سلامة (ت١٣٦٢هـ) في منهج الفرقان في علوم القرآن (٦/٢)، ومثله محمد بن عبد العظيم الزرقاني (ت١٣٦٧هـ) في مناهل العرفان (٣/٢).

(٢) أبجد العلوم (٢/ ١٧٢)، مناهل العرفان (٢/ ٥)، وانظر تعاريف أخرى في: التوقيف على مهمات التعاريف (ص:١٩٢).

(٣) منظومة التفسير (ص:١٥) للزمزمي مع شرحها التيسير.

موضوع علم التفسير القرآن الكريم، وهو كلام الله سبحانه الذي يمثل البيان الخاتَم الأخير الذي أنزله الله تعالى لإدارة حياة الناس في الأرض في جميع المجالات، فهو الدستور الذي تتفرع عنه كلُّ العلوم الإيمانية الاعتقادية والفقهية والسلوكية والتربوية واللغوية، وأورد هنا عبارةً ذهبيةً لبديع الزمان النورسي ﷺ في وصف القرآن الكريم إذ يقول: «هو الترجمةُ الأزلية لهذه الكائنات، ومُفسّرُ كتاب العالَم، وكذا هو لسان الغيب في عالم الشهادة، وكذا هو خزينة للمخاطبات الأزلية السبحانية والالتفاتات الأبدية الرحمانية، وكذا هو مرب للعالم الإنساني، وكالماء وكالضياء للإنسانية الكبرى التي هي الإسلامية»[(١)].

ما تعريف القرآن الكريم؟

تعريف القرآن تعريفًا حدِّيًا:

بما أن علم (التفسير) لا تتعلق به هذه الكلمة (التفسير) مفردة بل يسمى (تفسير القرآن) فلا بد من تعريف القرآن الكريم، وقد تم تعريفه بالآتي: كلامُ الله المنقولُ إلينا بين دفتي المصحف نقلاً متواترًا للتعبد[(٢)].

وأنت تعلم أن الأركان الثلاثة الأولى تكفي في التعريف (كلام الله المنقول إلينا بين دفتي المصحف) أما ما بعدها فلزيادة الإيضاح.

وعلى الرغم من أن شروط (الحد) المذكورة عند المناطقة غير متوفرة فيما ذكرناه إلا أن هذا التعريف كافٍ لتحديد القرآن، فالمصحف لا يدخله ما ليس منه، وأما ما أضيف له مؤخرًا من ذكر للطبعة أو توضيح لعلامات الوقف والابتداء، فقد رسخ عند الصغير والكبير وتواتر أنها ليست من القرآن، ولا نجد مثل ذلك في الكتب الإلهية الأخرى حيث يختلط اجتهاد الكاتب بكلمات الله على وجهٍ لا يمكن معه الجزم بمصدر الكلمة هل هو من الله أم من الكاتب إلا بتصديق القرآن المجيد.

قاعدة: لا بد من التفريق بين التواتر القرآني والتواتر القرائي والتواتر الحديثي:

ما الفرق بين التواتر القرآني والتواتر القرائي والتواتر الحديثي؟

---

(١) إشارات الإعجاز (ص:٢٢).

(٢) هذا تصرفٌ في التعاريف التي ذكروها –رحمهم الله– انظر مثلاً: المستصفى من علم الأصول (١/١٠١)، التنقيح (١/٤٦)، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول (ص:٢٦)، وبعضهم أضاف: "على الأحرف السبعة"، وهذه الزيادة ليست دقيقة للاختلاف في مفهوم الآحرف، والاتفاق أن القرآن إنما يتحقق بواحدٍ منها

التواتر القرآني نقل الأمة عن الأمة لجميع كلمات القرآن الكريم، فلا يمكن للمسلم الروسي مثلاً أن يقول للمسلم الموريتاني: عندي نسخة من المصحف تحتوي على كلمات أو أحرف لا توجد في نسختك، وهكذا بالنسبة لكل مسلمٍ في الشرق والغرب أداء وكتابة.

والتواتر القرائي: هو تواتر نقل الأحرف التي وقع فيها الخلاف بين القراء نقلاً عن النبي ﷺ، والتواتر هنا لمواضع الخلاف تواتر قرائي؛ لأنه نقل مصر عن مصر، فما عرف فيما بعد بقراءة نافع مثلاً: إن أرادوا بها الأحرف التي خالف فيها نافع بقية القراء، فحقيقتها نقل أهل المدينة عمن قبلهم إلى النبي ﷺ وهكذا بقية الأمصار، فهذا تواتر قرائي، ولذا كان ابن جرير الطبري رحمه الله مسددًا عندما كان يعزو القراءات إلى الأمصار لا إلى القراء[1].

وأما إنْ أريد بقراءة واحد من القراء المواضع المتفق عليها بين القراء، فهذه تنتمي إلى التواتر القرآني.

فإذا قرأنا ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ نستطيع أن نقرر أن كل الكلمات تعبر عن تواتر قرآني، لكننا إذا بحثنا السين أو الصاد من كلمة الصراط، فهذا تواتر قرائي.

وأما التواتر الحديثي فهو الذي عرفه جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ) بقوله[2]:

١٩٩-وَمَا رَوَاهُ عَدَدٌ جَمٌّ يَجِبْ ... إِحَالَةُ اجْتِمَاعِهِمْ عَلَى الْكَذِبْ

٢٠٠ – فَالْمُتَوَاتِرُ، وَقَوْمٌ حَدَّدُوا ... بِعَشْرَةٍ، وَهْوَ لَدَيَّ أَجْوَدُ

٢٠١ – وَالْقَوْلُ بِاثْنَيْ عَشَرَ أَوْ عِشْرِينَا ... يُحْكَى وَأَرْبَعِينَ أَوْ سَبْعِينَا

٢٠٢ – وَبَعْضُهُمْ قَدِ ادَّعَى فِيهِ الْعَدَمْ ... وَبَعْضُهُمْ عِزَّتَهُ، وَهْوَ وَهَمْ

٢٠٣ – بَلِ الصَّوابِ أَنَّهُ كَثِيرُ ... وَفِيهِ لِي مُؤَلَّفٍ نَضِيرُ

٢٠٤ – خَمْسٌ وَسَبْعُونَ رَوَوْا"مَنْ ... وَمِنْهُمُ الْعَشْرَةُ ثُمَّ انْتَسَبَا

٢٠٥ – لَهَا حَدِيثُ "الرَّفْعِ لِلْيَدَيْنِ" ... وَ"الْحَوْضِ"وَ"الْمَسْحِ عَلَى الْخُفَّيْنِ"

(١) انظر في تحقيق هذه المسألة: كتابي: المنهج النبوي في التعليم القرآني، وقد طبع مرارًا، وكتابي: بين التواتر القرآني والتواتر القرآئي.

(٢) ألفية السيوطي في علم الحديث (ص: ٢٥).

بصائر المعرفة القرآنية
قرآن يتلى لإنسانية ترقى

الأساس الثالث: حكم تَعَلُّم علم التفسير:

ما حكم تعلم علم التفسير؟ وكيف تطبق ذلك في حياتك؟

التفسير بالنسبة لتعلمه نوعان:

النوع الأول: تعلمه فرض عين: وهو ما لا عذر لأحدٍ بجهالته من المعنى العام المباشر للآيات المتعلقة بفروض الأعيان، كآيات التوحيد، والوضوء، والصلاة، والصيام، والحلال والحرام إجمالاً.

النوع الثاني: تعلمه فرض كفاية: وهو عدا ما سبق.

وقد أجمل شهاب الدين أبو العباس أحمد بن حسين ابن رسلان (ت ٨٤٤هـ) رحمه الله في (صفوة الزبد) الواجبات العينية بقوله[1]:

والعلـــمُ أَســـنَى ســـائِرِ الأَعمـــالِ ... وَهْـــوَ دليـــلُ الخـــيرِ والإِفضَـــالِ

فَفَرضُـــهُ عِلْـــمُ صِـــفَاتِ الفَـــرْدِ ... مَـــعْ عِلْـــمِ مـــا يَحتاجُـــهُ الـــمُؤَدِّي

مِـــن فَـــرضِ ديـــنِ اللهِ في الـــدَّوامِ ... كـــالطُّهْرِ والصـــلاة والصـــيامِ

والبَيْـــعِ للمُحْتَـــاجِ للتَّبَـــايُعِ ... وظَـــاهِرِ الأَحكـــامِ في الصَّـــنَائِعِ

وعِلْـــمُ دَاءٍ للقلـــوبِ مُفْسِـــدِ ... كالعُجْـــبِ والكِـــبْرِ وداءِ الحَسَـــدِ

ومـــا سِـــوَى هـــذا مـــن الأَحكـــامِ ... فَـــرْضُ كِفَايَـــةٍ علـــى الأَنَامِ

كُـــلُّ مُهِـــمٍّ قَصَـــدُوا تَحَصُّـــلَهْ ... مِـــنْ غَـــيرِ أَن يَعتَـــبِرُوا مَـــن فَعَلَـــهْ

---

(١) صفوة الزبد (ص: ٤٠، ٤١).

@Dr_Almajeedy /AlmajeedyDr /Quranok Quranok.com
قرآن يتلى لإنسانية ترقى

ما التقسيم الذهبي الذي وضعه ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في تفسير القرآن الكريم؟

ويتعلق بتعلم التفسير أن نعرف أقسام كلمات القرآن وتراكيبه:

هنا تجد تُرجمان ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يفصل ذلك في قاعدةٍ محكمةٍ ليبين لك حكم تعلم التفسير، حيث يقول: «التفسير على أربعة أوجه: وجهٍ تعرفه العرب من كلامها، وتفسيرٍ لا يعذر أحد بجهالته، وتفسيرٍ يعلمه العلماء، وتفسيرٍ لا يعلمه إلا الله -تعالى ذكره-»[1]، وبيان ذلك باختصار:

(١) تفسير الطبري (١/ ٧٥).

الأول: وجهٍ تعرفه العرب من كلامها، ما يفهمه العربي سليقة لأول وهلة: والمراد أنه يفهم معناه المباشر، مثل ﴿ذَٰلِكَ - أَعۡطَيۡنَٰكَ - ٱلۡكِتَٰبُ﴾، ولا يقتضي هذا بالضرورة أن تلك الجملة ليس لها معنى غير هذا المعنى المباشر، وذلك في أمرين:

١) **في كلمات القرآن الكريم وجمله:** مثل ﴿وَٱلۡعَصۡرِ﴾ [العصر:١] فإن العربي يفهم معنى العصر للوهلة الأولى، ويفهم هذا الأسلوب الذي جاءت الكلمة فيه وهو القسم، ومثل ذلك كلمة آمنوا، والناس، الجن، هدى، ضـــلال...فالمعنى العام مفهوم...وهذا لا شـــك لا يحتاج إلى تفسير.

٢) **في أســـاليب القرآن الكريم،** فقوله تعالى: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ [الدخان:٤٩] واضح عند العرب أنه أسلوب تهكم، وسُخْرِيَّة لا إكرام وإعزاز.

وأغلب القرآن ينتمي إلى هذا القسم؛ إذ كانت العرب تسمع كلمات القرآن ولا يزيد النبي ﷺ عليها شيئًا، بل يبلغها للناس فتأخذ عليهم مجامع قلوبهم دون شرح، فقد قرأ عليهم أوائل سورة فصلت، وسورة المسد لما نزلتدون احتياج إلى شرح أو تفصيل.

الثاني: تفسيرٍ لا يعذر أحد بجهالته: وذلك كتفسير الآيات في ثلاث مسائل: أصول العقائد الضرورية المتفق عليها، والأحكام العملية الضرورية كالصلاة، ومحاسن الأخلاق، فإنه لا بد له من تعلم حقائقها الشرعية، فهي بحاجة إلى تعلم بخلاف النوع السابق.

الثالث: تفسير يعلمه العلماء: وهي الكلمات أو الجمل التي تندرج تحتها المعاني الدقيقة، فيمكنك هنا إدراك المعنى العام، لكن إدراك المعاني العميقة التي تندرج تحتها لا يتمكن منه إلا القليل، كما في قصة ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا في تأويل سورة النصر، فعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه، فقال: لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر رضي الله عنه: إنه من قد علمتم. فدعاه ذات يوم فأدخله معهم، فما رُئِيتُ أنه دعاني يومئذ إلا ليريهم. قال: ما تقولون في قول الله تعالى ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [النصر: ١] فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا. وسكت بعضهم فلم يقل شيئًا. فقال لي: أكذاك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا. قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه

له. قال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ وذلك علامة أجلك ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر: ٣]فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول(١).

ومن ذلك بيان المعاني الأهم التي تدخل في الكلمات القرآنية مثل كلمة ﴿قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، فهي واضحة المعنى إلا أن النبي ﷺ أشار إلى أهم صور القوة حينما قال: (أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ)(٢)، وهذا النوع من التفسير ذكر النبي ﷺ بعضه مما احتيج إليه، وترك بعضه الآخر لاستنباط المستنبطين كما في قوله تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ [النساء:٨٣]، ومن أمثلته قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾ [الكهف:٢٢]: أنا من أولئك القليل الذين استثنى الله، كانوا سبعة وثامنهم كلبهم(٣).

الرابع: وتفسيرٍ لا يعلمه إلا الله تعالى: وليس المراد أنه مبهم على الإطلاق بحيث لا يعلم، بل يكون معناه العام معلومًا، وتفصيله مجهولاً: كأمور الغيب، وكيفية وقوع الحقائق في قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٣]. ومثل ذلك آيات الحساب والجنة والنار، وآيات الصفات فمعنى الآيات معلوم والكيف غير معقول لأنه خارج قدرة المخلوق.

ما القصة التي دلت على صحة التقسيم الحبري لتفسير القرآن الكريم؟

ومما يشهد لهذا التقسيم الحبري المدهش للقرآن المجيد ما جاء عن أبي العالية قال: كانوا عند عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فوقع بين رجلين ما يقع بين الناس، فوثب كل واحد منهما إلى صاحبه، فقال بعضهم: ألا أقوم فآمرهما بالمعروف وأنهاهما عن المنكر؟ فقال بعضهم: عليك نفسك إن الله تعالى قال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ [المائدة: ١٠٥] فسمعها ابن مسعود رضي الله عنه فقال: لم يجئ تأويل هذه الآية بعد: إن القرآن أنزل حين أنزل وكان منه آي مضى تأويله قبل أن ينزل، وكان منه آي وقع تأويله اليوم، ومنه آي يقع تأويله بعد اليوم، ومنه

(١) البخاري (٤٢٩٤).
(٢) مسلم (١٩١٧).
(٣) تفسير الطبري (١٧/٦٤٢).

آي يقع تأويله عند الساعة وما ذكروا من أمر الساعة، ومنه آي يقع تأويله بعد يوم الحساب، والجنة والنار: فما دامت قلوبكم واحدة، وأهواؤكم واحدة، ولم تلبسوا شيعًا، ولم يذق بعضكم بأس بعض، فمروا وانهوا فإذا اختلفت القلوب والأهواء، وألبستم شيعًا، وذاق بعضكم بأس بعض فامرؤ ونفسه فعند ذلك جاء تأويلها[١].

وهذا الوجه الأخير يدفعنا إلى طرح سؤال:

بما أن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا جعل القسم الرابع من التفسير: القسم الذي لا يعلمه إلا الله، فهل معنى ذلك أن من القرآن ما لا يُعرف معناه؟

الجواب: لا! بل القرآن كله مبين، وقد أخبر الله ﷻ عن إبانته باسم الفاعل: ﴿مبين﴾، والمراد بإبانته أن المعنى العامَّ لكلماته واضحٌ، إلا أن من كلماته ما لا يُعلَم معناها على التفصيل أو الحقيقة أو الكيفية، بل مرد ذلك إلى الله تعالى مجده، وقد تكون بعض التفاصيل غير معلومة لعدم حاجة البشرية إلى معرفتها، وسيأتي مزيد إيضاح لهذا الموضوع إن شاء الله.

الأساس الرابع: غاية علم التفسير:

ما غاية علم التفسير؟ وما الهدف الذي تطلب تحقيقه من معرفتك بعلم التفسير؟

الغاية هدايةُ النفس والأنام إلى أعظم المصالح الدنيوية والأخروية سواء أكانوا مسلمين أم كافرين، ويبصرنا بذلك أن الله ﷻ ذكر غاية نزول القرآن وأهم أهدافه، فقال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ثم عمَّ العالم، فقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وقد بين الله جل ذكره أن هذه النذارة للعالمين رحمة لهم فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن أهمية التفسير: «وحاجة الأمة ماسة إلى فهم القرآن الذي هو حبل الله المتين والذكر الحكيم، والصراط المستقيم ...»[٢].

وهنا ربما تسأل: ألا يناقض هذا ما ورد في القرآن من أنه هدى خاص للمؤمنين، وللمتقين؟

أجيبك: بأن هناك أربع مراتب لهدايات القرآن:

المرتبة الأولى: القرآن هدى للعالمين أي رحمة بهم، كما سبق في آيتي الفرقان والأنبياء.

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي (١٠/ ٩٢).

(٢) مقدمة في أصول التفسير، لابن تيمية (ص: ٧).

المرتبة الثانية: القرآن هدى للناس، كما سبق في آية البقرة آنفًا.

المرتبة الثالثة: القرآن هدى للمؤمنين، كما في قوله تعالى مجده: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤]، فهذه المرتبة لا تناقض ما سبق؛ لأن المؤمنين هم من ينتفعون بالقرآن المبين.

المرتبة الرابعة: القرآن هدى للمتقين كما في قوله جل مجده: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]؛ لأنهم الفئة الأكثر تطبيقًا له، فهم الأعظم نفعًا وانتفاعًا به.

ستقول: هذه الآيات تتكلم عن القرآن ونحن نتكلم عن غاية التفسير وهدفه، فما العلاقة بينهما؟

أجيبك: بأن التفسير بيانٌ لمعاني كلمات القرآن التي أراد الله ﷻ لنا أن نفهمها بقدر الطاقة البشرية، وبفهم معاني كلمات الله نستطيع أن نحافظ على صلاح الأرض، وأن نبني الصلاح في الأحوال الفردية، والجماعية، والعمرانية، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

قرآن يتلى لإنسانية ترقى

الأساس الخامس: من صور التفسير في عهد النبي ﷺ وصحبه رضي الله عنهم:

كيف كان التفسير في عصر النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم؟

لم يكن التفسير القوليُّ في عهد النبي ﷺ وصحبه رضي الله عنهم كما في كتب التفسير الآن، ولكنه اتخذ صورًا منها:

الصورة الأولى: أن يكون التفسير بيانًا من النبي ﷺ للمُشْكِل، ومن أمثلته:

المثال الأول: عَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا نَزَلَتِ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢] قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّنَا لاَ

يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟ قَالَ: «لَيْسَ كَمَا تَقُولُونَ. ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ بِشِرْكٍ. أَوَ لَمْ تَسْمَعُوا إِلَى قَوْلِ لُقْمَانَ لِابْنِهِ: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]؟»(١).

المثال الثاني: عن ابن أبي مليكة، أن عائشة، زوج النبي ﷺ: كانت لا تسمع شيئًا لا تعرفه، إلا راجعت فيه حتى تعرفه، وأن النبي ﷺ قال: «من حوسب عذب» قالت عائشة رضي الله عنها: فقلت أوليس يقول الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٨] قالت: فقال: " إنما ذلك العرض، ولكن: من نوقش الحساب يهلك "(٢).

المثال الثالث: تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكَبِ، فَقَالُوا: أَيْ رَسُولَ اللَّهِ! كُلِّفْنَا مِن الأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ: الصَّلاةَ، وَالصِّيَامَ، وَالْجِهَادَ، وَالصَّدَقَةَ، وَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هَذِهِ الآيَةُ وَلا نُطِيقُهَا. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟، بَلْ قُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ»، قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ، فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا الْقَوْمُ، وذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي إِثْرِهَا: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللَّهُ تَعَالَى، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قَالَ: نَعَمْ.

﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. قَالَ: نَعَمْ. ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. قَالَ: نَعَمْ. ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. قَالَ: نَعَمْ(٣).

ولك أن تسأل: ما الدليل على أن هذه الآية ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦] بيانٌ للمشكل، وأن هذا هو معنى النسخ، وليست إثباتًا لحكمٍ جديدٍ؟

---

(١) البخاري (٣٣٦٠).

(٢) البخاري (١٠٣).

(٣) مسلم (٢٤٤).

أجيبك: الدليلُ على ذلك أن الله جلَّ ذكرُه قرَّر معنى هذا القانون الذي ذكره في هذه الآية في آياتٍ مكيةٍ سبقت آية البقرة المدنية؛ وذلك مثلُ قوله جلَّ ذكره في سورة (المؤمنون): ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [المؤمنون: ٦٢]، ومثل قوله تعالى جده: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢]، ولا يصح أن آيات الوصايا الثلاث مدنية، بل هي مكية متداخلة مع آيات الوصايا في سورة الإسراء المكية. والتفسير هنا ليس من باب تفسير القرآن بالقرآن بل هو تفسير للقرآن بالقرآن ببيان النبي ﷺ.

الصورةُ الثانيةُ: قد يكون التفسير تصحيحًا من الصحابة رضي الله عنهم لفهمٍ خاطئٍ في القرآن الكريم: فعَنْ أَسْلَمَ أَبِي عِمْرَانَ قَالَ: غَزَوْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ نُرِيدُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ، وَعَلَى الْجَمَاعَةِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ، وَالرُّومُ مُلْصِقُو ظُهُورِهِمْ بِحَائِطِ الْمَدِينَةِ، فَحَمَلَ رَجُلٌ عَلَى الْعَدُوِّ، فَقَالَ النَّاسُ: مَهْ! مَهْ! لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ. يُلْقِي بِيَدَيْهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ!. فَقَالَ أَبُو أَيُّوبَ –الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ–:

إِنَّمَا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِينَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ. لَمَّا نَصَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ وَأَظْهَرَ الإِسْلاَمَ قُلْنَا: هَلُمَّ نُقِيمُ فِي أَمْوَالِنَا وَنُصْلِحُهَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، فَالإِلْقَاءُ بِالأَيْدِي إِلَى التَّهْلُكَةِ أَنْ نُقِيمَ فِي أَمْوَالِنَا وَنُصْلِحَهَا، وَنَدَعَ الْجِهَادَ(١)، أو كما في قصة عمرانَ بنِ الحصين رضي الله عنه في تصحيح فَهم الخوارج حيث جاءه نَافِعُ بْنُ الأَزْرَقِ وَأَصْحَابُهُ، فَقَالُوا: هَلَكْتَ يَا عِمْرَانُ، قَالَ: مَا هَلَكْتُ، قَالُوا: بَلَى، قَالَ: مَا الَّذِي أَهْلَكَنِي؟ قَالُوا: قَالَ اللَّهُ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]، قَالَ: قَدْ قَاتَلْنَاهُمْ حَتَّى نَفَيْنَاهُمْ، فَكَانَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ، إِنْ شِئْتُمْ حَدَّثْتُكُمْ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالُوا: وَأَنْتَ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: نَعَمْ، شَهِدتُّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَقَدْ بَعَثَ جَيْشًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ، فَلَمَّا لَقُوهُمْ قَاتَلُوهُمْ قِتَالاً شَدِيدًا، فَمَنَحُوهُمْ أَكْتَافَهُمْ، فَحَمَلَ رَجُلٌ مِنْ لُخْمَتِي عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِالرُّمْحِ، فَلَمَّا غَشِيَهُ، قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، إِنِّي مُسْلِمٌ، فَطَعَنَهُ فَقَتَلَهُ، فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلَكْتُ، قَالَ: «وَمَا الَّذِي صَنَعْتَ؟» –مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ–، فَأَخْبَرَهُ بِالَّذِي صَنَعَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَهَلَّا شَقَقْتَ عَنْ بَطْنِهِ فَعَلِمْتَ مَا فِي قَلْبِهِ؟» قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ،

(١) أبو داود (٢٥١٢)، والترمذي (٢٩٧٢)، وقال: "حسن صحيح غريب"، وصححه الأرناؤوط والألباني.

لَوْ شَقَقْتُ بَطْنَهُ لَكُنْتُ أَعْلَمُ مَا فِي قَلْبِهِ؟ وفي رواية أبي يعلى: لو شققت عن قلبه ما كان يُعلمني القلبُ. هل قلبه إلا مضغةٌ من لحم؟ قَالَ: «فَلاَ أَنْتَ قَبِلْتَ مَا تَكَلَّمَ بِهِ، وَلاَ أَنْتَ تَعْلَمُ مَا فِي قَلْبِهِ»(١).

الصورة الثالثة: أن يكون التفسير لغويًا:

فقد قرر الإمام الشافعي رحمه الله **أن لسان العرب:** " أوسعُ الألسنة مذهبًا، وأكثرُها ألفاظًا، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسانٌ غير نبي"(٢)؛ وهذه إشارة لطيفة من إمام الأصول التفسيرية والفقهية بأن يُلجأ إلى الاجتهاد الجماعي في تقرير المسائل اللغوية الدقيقة وغيرها، ولذا قد يُسأل العربيُّ عن معنى لفظة عربية، فلا يعرفها، وأبرز أمثلة هذا النوع أجوبة ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن أسئلة نافع بن الأزرق، ومن أمثلتها: أن نافعًا سأل ابنَ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ [الانشقاق: ١٤] ما يحور؟ قال: يرجع. قال: وهل كانت العرب تعرف ذلك قبل أن ينزل الكتابُ على محمدٍ ﷺ؟ قال: نعم، أما سمعت قول لبيد:

ومَـــا الـــمَرْءُ إلاَّ كالشِّـــهابِ وَضَـــوْئِهِ يحـــورُ رَمـــادًا بَعْـــدَ إذْ هُـــوَ ســـاطِعُ؟

وحقَّ لطالب التفسير أن يراجع كتاب بنت الشاطيء –رحمها الله– للاستفادة من الثروة اللغوية الضخمة التي يجدها في أسئلة نافع بن الأزرق وإن ضعفت الرواية سندًا(٣).

الصورةُ الرابعة: أن يكون التفسير استنباطًا للأحكام في العموم والخصوص، ودلالات الألفاظ، كقضية تقسيم الأراضي المفتوحة فيئًا، حيث جُمع فيها بين آية الغنائم في الأنفال، وآيات سورة الحشر، فعن عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه أنه جمع أناسًا من المسلمين، فقال: إني أريد أن أضع هذا الفيء موضعه، فَلْيَغْدُ كلُّ رجلٍ منكم عليَّ برأيه، فلما أصبحَ قال: إني وجدت آيةً من كتاب الله تعالى –أو قال: آياتٍ– لم يترك الله أحدًا من المسلمين له في هذا المال شيءٌ إلا قد سمَّاه. قال الله: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ

(١) ابن ماجه (٣٩٣٠)، وحسنه البوصيري في مصباح الزجاجة (١٦٤/٤)، وكذا الألباني.

(٢) الرسالة للشافعي ت رفعت فوزي (ص: ١٧).

(٣) قصة نافع بن الأزرق مع ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا رواها الطبراني في المعجم الكبير (١٠٥٩٧)، وأوردها السيوطي بتمامها في الإتقان (٣٤٧/١)، وقد ضعف القصة عدد من المحققين منهم الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٣٨/٦) قال: «وفيه جويبر وهو متروك»، كما أوردها السيوطي نقلاً عن ابن الأنباري في (الوقف والابتداء)، ويدور سياقها على محمد بن زياد اليشكري وهو كذاب، إلا أن النقاد أجازوا الرواية في التفسير عن بعض من لا تُقبل روايته في الأحكام؛ لأن مَرَدَّ التفسير إلى اللغة، وهي تثبت بطرق عدة.

وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١]. قال: فهذه لهؤلاء، ثم قرأ: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الحشر: ٧]، ثم قرأ: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ [الحشر: ٨] فهذه للمهاجرين، ثم قال: فهذه لهؤلاء، ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩] ثم قال: هذه للأنصار، ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]، ثم قال: (فاستوعبتْ هذه الآيةُ الناسَ)، فليس في الأرض مسلمٌ إلا له في هذا المال حقٌّ أُعْطِيَهُ أو حُرِمَه[١].

الصورةُ الخامسة: قد يكون التفسير بيانًا لسبب النزول، وللنازل، وأمثلته تأتي في مبحث (سبب النزول).

(١) مصنف عبد الرزاق (٧٢٨٧)، واللفظ له، أبو داود (٢٩٦٦)، ، النسائي (٤١٤٨)، سنن البيهقي الكبرى (١٢٩٧٨). وذكر الأرناؤوط والألباني أن رجاله ثقات، إلا أنه منقطع؛ فإن الزهري لم يدرك عمر بن الخطاب ﷺ، وذكر الألباني أن ذلك لا يضر؛ لأنه قد ذكر الذي بينهما وهو مالك بن أوس، كما في مسند الشافعي، وعنه البيهقي من طريق عمرو بن دينار عن الزهري عن مالك بن أوس، وإسناده صحيح. صحيح سنن أبي داود، ط غراس (٨/ ٣١٦).

الأساس السادس: المصطلحات التي برزت لتشير إلى علم التفسير، أو شيء منه:

ما المصطلحات التي برزت لتشير إلى علم التفسير في القرون الأولى؟

برزت في علم التفسير عدة مصطلحات في القرون الأربعة الأولى، أهمها:

١) علم التفسير، واصطلح الكاتبون فيه على إدراج كل ما تعلق بالآية من معنى، أو حكم مستنبط، أو سبب نزول، أو قصة، ولو لم تكن متعلقة بالمعنى، وصنيع أئمة المحدثين كالبخاري ومسلم في كتاب التفسير من كتبهم يبين ذلك، فمصطلح التفسير يتسع عندهم لذلك كله، وعلى ذلك جرى من ألف في التفسير فيما بعد في غالب المصنفات التفسيرية، وإذا كان الشوكاني قد نقد ابن كثير وغيره من المفسرين في استطرادهم في سورة الإسراء، فقال عنه: "واعلم أنه قد أطال كثير من المفسرين كابن كثير والسيوطي وغيرهما في هذا الموضع بذكر الأحاديث الواردة في الإسراء على اختلاف ألفاظها، وليس في ذلك كثير فائدة فهي معروفة في موضعها من كتب الحديث، وهكذا أطالوا بذكر فضائل المسجد الحرام والمسجد الأقصى، وهو مبحث آخر والمقصود في كتب التفسير ما يتعلق بتفسير ألفاظ الكتاب العزيز، وذكر أسباب النزول، وبيان ما يؤخذ منه من المسائل الشرعية، وما عدا ذلك فهو فضلة، لا تدعو إليه حاجة"[١]...فإن المطالع لكتابه فتح القدير في التفسير يجده استطرد أكثر من استطراد ابن كثير في معظم تفسيره سردًا للأحاديث والروايات، أو استنباطًا للأحكام، أو ذكرًا للقراءات، أو تفريعًا لمسائل الفقه، ونقل صاحب (أبجد العلوم) عن بعض الفضلاء قال: علم التفسير لا يتم إلا بأربعة وعشرين علمًا[٢]، بل توسع المتأخرون كالسيوطي فجعلوا كل علوم القرآن من فروع علوم التفسير كما في كتابه التحبير في علوم التفسير.

٢) علم معاني القرآن، وتجد كتبه تتضمن التفسير اللغوي والإعرابي العام: ككتاب معاني القرآن للفراء(ت٢٠٧هـ)، ولأبي جعفر النحاس (ت٣٣٨هـ).

٣) علم غريب القرآن: ويأتي مبحث خاص به في القسم الثاني إن شاء الله تعالى.

٤) علم مشكل القرآن: ككتاب ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ).

٥) علم إعراب القرآن: ككتاب (إعراب ثلاثين سورة من القرآن) لابن خالويه (ت ٣٧٠هـ).

---

(١) فتح القدير(٣/ ٢٩٨).

(١) أبجد العلوم (٢/ ٦).

٦) علم أحكام القرآن: ككتاب أحكام القرآن للقاضي إسماعيل بن إسحاق القاضي (ت٢٨٢هـ)، ومثله لأحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي (ت ٣٢١هـ)، وأحكام القرآن للجصاص (ت ٣٧٠هـ)، ونلحظ أن كل ما ذكر بعد علم التفسير يضمنه المفسرون غالبًا في كتبهم، ويعد إفرادها إفرادًا لنوع مما يدخل في التفسير، وإنما أُفرد ليتوسع فيه.

وناقش بعض المعاصرين –وهو الدكتور المحقق المحرر مساعد الطيار–توسع المفسرين في تحديد اصطلاح التفسير حيث أضافوا إليه غيره مما لا يتعلق به–من وجهة نظر الطيار– فعرف التفسير بأنه: بيان معاني القرآن فقط، وما كان وراء بيان المعاني في كتب التفسير فإنه إما أن يكون من علوم القرآن سوى التفسير، وإما أن يكون من الاستنباطات والفوائد، وإما أن يكون من علوم شتى من العلوم الإسلامية وغيرها[1]...وهو في ذلك ذاهب إلى المعنى اللغوي المباشر لكلمة تفسير، والأصل من وجهة نظري النظر فيما تعارف عليه المفسرون في تعريف التفسير ليكون تعريفًا للمصطلح لا النظر في المعنى اللغوي المباشر لكلمة تفسير.

(١) بحث عن إشكالية تحديد المصطلحات في الدراسات القرآنية: الدكتور مساعد الطيار منشور في شبكة التفسير والدراسات القرآنية.

الأساس السابع: شرفُ علم التفسير:

كيف تقنع من يستمع لك بشرف علم التفسير؟

الجواب: أقول له: ينبغي أن تجعل علم التفسير العلمَ المقدَّم في حياتك؛ للمزايا العظيمة التي حازها هذا العلم كثيرة، ومنها:

المزية الأولى: موضوع علم التفسير وهو كتاب الله؛ وشرف العلم إنما يكون باعتبار موضوعه وغايته، فقد قال أبو القاسم حسين بن محمد الراغب الأصفهاني: "**علم التفسير قد حاز الشرف من جهات ثلاث:**

أحدها من جهة الموضـــوع؛ فإن موضـــوعه كلام الله تعالى الذي هو ينبوع كل حكمة، ومعدن كل فضيلة.

وثانيها: من جهة الغرض؛ فإن الغرض منه الاعتصام بالعروة الوثقى، والوصول إلى السعادة الحقيقية التي هي الغاية القصوى.

وثالثها: من جهة شدة الحاجة؛ فإن كل كمال ديني أو دنيوي مفتقر إلى العلوم الشرعية والمعارف الدينية، وهي متوقفة على العلم بكتاب الله تعالى"[١].

المزية الثانية: علم التفسير يعني بيان مراد الله –تعالى ذكره– وفق ما يستطيعه الفهم البشري، وبذا يكون علم التفسير بذلك أعظمَ العلوم!!، ولذا قال ابن عطية (ت٥٤٢هـ): «فلما أردت أن أختار لنفسي، وأنظر في علمٍ أُعِدُّ أنوارَه لظُلَم رمسي، سبرتها بالتنويع والتقسيم، وعلمت أن شرفَ العلمِ على قدر شرف المعلوم، فوجدت أمتَنَها حبالاً، وأرسَخَها جبالاً، وأجمَلَها آثارًا، وأسطعها أنوارًا علمُ كتاب الله»[٢].

المزية الثالثة: التفسير مصدر بقية العلوم الشرعية، فقد انبثقت عنه؛ «إذ هو الأصل في فهم القرآن وتدبره، وعليه يتوقف استنباط الأحكام، ومعرفة الحلال من الحرام»[٣]، والتفسير أداة تدبر القرآن الكريم وتفهمه ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، فوسيلة المعرفة: التدبر، وغاية المعرفة: التذكر، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [النساء: ٨٢]، [القتال:٢٤]، وقال إياس بن معاوية: "مثل من يقرأ القرآن ومن يعلم تفسيره أو لا يعلم، مثل قومٍ جاءهم كتابٌ من صاحبٍ لهم ليلاً، وليس عندهم مصباحٌ، فتداخلهم لمجيء الكتاب روعةٌ لا يدرون ما فيه، فإذا جاءهم المصباح عرفوا ما فيه"[٤].

---

(١) أبجد العلوم (٢/ ١٧٥).

(٢) تفسير ابن عطية (٦/١)، ورَمَسَ الْمَيِّتَ: غَطَّاهُ بِالتُّرابِ، دَفَنَهُ وسوَّى عليه التراب، والرَّمْسُ: القبرُ، والرَّمْسُ: الترابُ الذي يُحْثَى على القبرِ، والرَّمْسُ: التُّرْبُ تَرْمُس به الريحُ الأَثَر.

(٣) المدخل لدراسة القرآن الكريم، للدكتور محمد أبي شهبة (ص:٢٠).

(٤) زاد المسير في علم التفسير (١/ ١٢).

المزية الرابعة: هذا العلم هو الذي دعا به النبي ﷺ لنبلاء أصحابه وساداتهم رضي الله عنهم؛ كابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فقد دعا له النبي ﷺ فقال: «اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل»(١).

وقد يتساءل بعضهم هنا: هل الفقه بالمعنى الاصطلاحي المتأخر مقدمٌ على التفسير بنص الحديث؟

والجواب: لا! لأن المراد من الفقه هنا هو علم الدين بسائر أنواع العلوم، وليس المراد علم الفقه المخصوص بعلم الفروع المتأخر، وتعلم الدين لا يتأتى إلا وفق المصدر الأول للدين، وهو القرآن الكريم الذي هو مع السنة عمدة الفقهاء في الاستدلال...وعلى هذا فالمراد من الدعاء تعلم تفسير كلام الله «فقهه في الدين»، ودقائق مدلولاته «وعلمه التأويل»، ويؤيد ذلك ثلاثة أمور:

الأول: أن الفقه بمعنى فقه الفروع اصطلاح متأخر، ولا يحاكم الاصطلاح الشرعي إلى الاصطلاح المتأخر.

ويوضح الهروي رحمه الله ذلك، فيقول:« (اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ): بِكَسْرِ الْقَافِ الْمُشَدَّدَةِ، أَيِ اجْعَلْهُ فَقِيهًا عَالِمًا (فِي الدِّينِ)، أَيْ أُصُولِهِ وَفُرُوعِهِ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ الْفِقْهَ الْمُتَعَارَفَ الْمُخْتَصَّ بِفُرُوعِ الْمُعَامَلَاتِ وَالْخُصُومَاتِ»(٢).

وقد ناقش حجة الإسلام الغزالي رحمه الله هذا المعنى في إحيائه، وتعرض لما يمكن أن نطلق عليه التحور الدلالي للمصطلح، وكان مما قرره أن الفقه في العهد الأول إنما كان يراد به فقه النفس، وصلاح

(١) روى البخاري (١٤٣) الشطر الأول منه، وفيه (٧٥): عن ابن عباس قال: ضمني رسول الله ﷺ وقال: «اللهم علمه الكتاب»، ورواه كاملاً الإمام أحمد (٢٣٩٧)، وقال الأرناؤوط:" إسناده قوي على شرط مسلم".

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩/ ٣٩٧٢)، وقال الغزالي في إحياء علوم الدين (١/ ٣٢): "خمسة ألفاظ الفقه والعلم والتوحيد والتذكير والحكمة فهذه أسام محمودة والمتصفون بها أرباب المناصب في الدين ولكنها نقلت الآن إلى معان مذمومة فصارت القلوب تنفر عن مذمة من يتصف بمعانيها لشيوع إطلاق هذه الأسامي عليهم

اللفظ الأول الفقه فقد تصرفوا فيه بالتخصيص لا بالنقل والتحويل إذا خصصوه بمعرفة الفروع الغريبة في الفتاوي والوقوف على دقائق عللها واستكثار الكلام فيها وحفظ المقالات المتعلقة بها فمن كان أشد تعمقاً فيها وأكثر اشتغالاً بها يقال هو الأفقه ولقد كان اسم الفقه في العصر الأول مطلقًا على علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الأعمال وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة واستيلاء الخوف على القلب ويدلك عليه قوله ﷻ ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ وما يحصل به الإنذار والتخويف هو هذا الفقه دون تفريعات الطلاق والعتاق واللعان والسلم والإجارة فذلك لا يحصل به إنذار ولا تخويف بل التجرد له على الدوام يقسي القلب وينزع الخشية منه كما نشاهد الآن من المتجردين له، وقال تعالى {لهم قلوب لا يفقهون بها} وأراد به معاني الإيمان دون الفتاوى".

البواطن المستمد من كلام الله ووحيه، واسمع له حين يقول: "ولقد كان اسم الفقه في العصر الأول مطلقًا على علم طريق الآخرة، ومعرفة دقائق آفات النفوس، ومفسدات الأعمال، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة، واستيلاء الخوف على القلب، ويدلك عليه قوله ﷻ: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٢]، وما يحصل به الإنذار والتخويف هو هذا الفقه"(١).

الثاني: رواية طاووس عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: دعاني رسول الله ﷺ فمسح على ناصيتي وقال: «اللهم علمه الحكمة، وتأويل الكتاب»(٢) فإذا قلنا: إن الحكمة هي السنة فهي التفسير العلمي والعملي للكتاب...على أن أهل العلم اختلفوا في معنى الحكمة هنا "والأقرب أن المراد بها في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا الفهم في القرآن"(٣)، كما يقول ابن حجر.

الثالث: ما جاء في رواية البخاري: «اللهم علمه الكتاب»(٤)، أي حفظًا وتفسيرًا، كما قال ابن حجر: "والمراد بالتعليم ما هو أعم من حفظه والتفهم فيه"(٥)، وفي بعض الروايات "اللهم علمه الحكمة"(٦) بدل الكتاب "فيحمل على أن المراد بالحكمة أيضا القرآن جمعًا بين الروايات فيكون بعضهم رواه بالمعنى، وللترمذي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: دعا لي رسول الله ﷺ أن يؤتيني الحكمة مرتين(٧)، "فيحتمل تعدد الواقعة فيكون المراد بالكتاب القرآن، وبالحكمة السنة"(٨).

المزية الخامسة: القرآن حوى ثمرات الكتب السماوية السابقة ونسخ منها مالا حاجة به، وتم ما أراد الله أن يكمله ليبقى مدى الأزمان صانعًا للحياة، صابغًا لها بصبغة الله تعالى، شافيًا لأسقامها، بانيًا لنهضتها فالله "جعل كتابه الخاتم متضمنًا لثمرة كتبه، التي أولاها أوائل الأمم، كما نبه عليه بقوله تعالى: ﴿يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة:٢ – ٣]، وجعل من معجزة هذا الكتاب

---

(١) إحياء علوم الدين (١/ ٣٢).
(٢) ابن ماجة (١٦٦)، وقال الأرناؤوط:" إسناده صحيح".
(٣) فتح الباري (١/ ١٧٠).
(٤) البخاري (١٧٥).
(٥) فتح الباري (١/ ١٧٠).
(٦) البخاري (٣٧٥٦).
(٧) الترمذي (٣٨٢٣)، وصححه الألباني.
(٨) فتح الباري (١/ ١٧٠).

أنه -مع قلة الحجم- متضمن للمعنى الجم، وبحيث تقصر الألباب البشرية عن إحصائه، والآلات الدنيوية عن استيفائه، كما نبه عليه بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان:٢٧][١].

كالبـــدر مـــن حيـــث التفـــت رأيتـــه يهـــدي إلى عينيـــك نـــورًا ثاقبـــا

كالشـــمس في كبـــد الســـماء وضـــوءها يغشـــى الـــبلاد مشـــارقًا ومغـــاربا"[٢]

وفي ذلك يقول سيد قطب (ت١٣٨٥هـ): "والبشرية من صنع الله تعالى؛ ولذلك لا تُفتح مغاليق فطرتِها إلا بمفاتيح من صنع الله خالقها، ولا تُعالَج أمراضها وعللها إلا بالدواء الذي يخرج من يده سبحانه، وقد جعل الله مفاتيحَ كلِّ مُغلقٍ، وشفاءَ كل داء في كتابه المجيد: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]"[٣].

: فإن قلت: هلَّا ذكرت بعض الأمثلة التي تدل على اهتمام السلف بعلم التفسير؟

أجيبك بأنه: لشرفه تسابق السلف إلى معرفته، والترغيب في مدارسته فقد قال علي بن أبي طالب ﵁: "سلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلا أنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار، أم في سهل نزلت أم في جبل"[٤]، وقال عبد الله بن مسعود ﵁: "والذي لا إله غيره ما من كتاب الله سورة إلا أنا أعلم حيث نزلت، وما من آية إلا أنا أعلم فيما أنزلت، ولو أعلم أحدًا هو أعلم بكتاب الله مني تبلغه الإبل لركبت إليه"[٥]، وعن مسروق قال: "وجدت أصحاب محمد صلى ﷺ مثل الإخاذ يروي الواحد، والإخاذ يروي الاثنين، والإخاذ لو ورد عليه الناس أجمعون لأصدرهم وإن عبد الله بن

(١) فتدخل كلمات القرآن في كلمات الله المذكورة في الآية، ففي تفسير الماوردي = النكت والعيون (٤/ ٣٤٥): «وفي {كَلِمَاتُ اللَّهِ} هنا أربعة أوجه: أحدها: أنها نعم الله على أهل طاعته في الجنة. الثاني: على أصناف خلقه. الثالث: جميع ما قضاه في اللوح المحفوظ من أمور خلقه. الرابع: أنها علم الله» والقرآن أنزله الله بعلمه، وفي التحرير والتنوير (٢١/ ١٨١): «وَكَلِماتُ جَمْعُ كَلِمَةٍ بِمَعْنَى الْكَلَامِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها [الْمُؤْمِنُونَ: ١٠٠] أَيِ: الْكَلَامُ الْمُنْبِئُ عَنْ مُرَادِ اللَّهِ مِنْ بَعْضِ مَخْلُوقَاتِهِ مِمَّا يُخَاطِبُ بِهِ مَلَائِكَتَهُ وَغَيْرَهُمْ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ وَالْعَنَاصِرِ الْمَعْدُودَةِ لِلتَّكَوُّنِ الَّتِي يُقَالُ لَهَا: كُنْ فَتَكُونُ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا أَنْزَلَهُ مِنَ الْوَحْيِ إِلَى رُسُلِهِ وَأَنْبِيَائِهِ مِنْ أَوَّلِ أَزْمِنَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَمَا سَيُنْزِلُهُ عَلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَيْ لَوْ فَرَضَ إِرَادَةَ اللَّهِ أَنْ يَكْتُبَ كَلَامَهُ كُلَّهُ صُحُفًا».

(٢) المفردات للراغب الأصبهاني (١/٢٠).

(٣) في ظلال القرآن (١/١٥).

(٤) تفسير عبد الرزاق الصنعاني (٣/ ٢٤١)، وهو في تفسير القرطبي (١/ ٦٦).

(٥) مسلم (٦٤١٥)، إلا جزء اللقاء، فقد ذكره القرطبي (١/ ٦٦).

مسعود من تلك الإخاذ"[١]، وقال الحسن: "والله ما أنزل آية إلا وهو يحب أن يعلم العباد فيما أنزلت، وماذا عنى بها"[٢]، وقال مجاهد: "أحب الخلق إلى الله تعالى أعلمهم بما أنزل"[٣].

ويتعلق بشرف علم التفسير هذه الحقيقة:

قاعدة: احتياج القرآن للتفسير سببه كمال القرآن ونقصان الإنسان:

لماذا وضعنا هذه القاعدة؟

هذه القاعدة جاءت بناء على سؤال: خاطب الله ﷻ خلقه بما يفهمونه، وقد أقام الله ﷻ علينا الحجة بذلك، فأرسل رسله عليهم السلام يبلغون قومهم كتاب ربهم بلغتهم ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ (إبراهيم: ٤)، ووصف الله ﷻ القرآن خاصة في عشرات الآيات بالإبانة مقروءًا ومكتوبًا، في لفظه وطريقة أدائه، وفي معانيه، ومفاهيمه، منها قوله: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ﴾ [المائدة: ١٥]، وقوله: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [يوسف: ١، ٢]، وقوله: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ﴾ [الحجر: ١] ، فإذا كان القرآن مبينًا، وإذا كان "الأصل أن كل من وضع من البشر كتابًا فإنما وضعه ليُفهم بذاته من غير شرح"[٤]، فأولى أن يخاطب الله ﷻ البشر بما يفهمون من غير احتياج إلى شرح، ليكون القرآن حقًا كما وصف نفسه بلاغًا مبينًا.

فلماذا نحتاج إلى التفسير؟

(١) ذكره القرطبي. ينظر: تفسير القرطبي (١/ ٦٦).

(٢) الدر المنثور (٢/ ٦٩).

(٣) تفسير القرطبي (١/ ٥٩)، فتح القدير (١/ ٢٠).

(٤) البرهان (١/ ١٤)، كشف الظنون(١/ ٣٦)، ونقله عنه في أبجد العلوم (١/ ١٩٠).

الأساس والتنوير في أصول التفسير أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي

الجواب: يجمعه تلك القاعدة التي قررتها، ويمكن تفصيلها في أربعة أمور:

أحدها: **كمال فضيلة القرآن**: "فإنه لقوته العلمية يجمع المعاني الدقيقة في اللفظ الوجيز، فربما عسر فهم مراده، فقُصِد بالشرح ظهورُ تلك المعاني الخفية"(١)، "فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتابًا في فن من العلم كالطب والحساب، ولا يستشرحوه، فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم، وبه نجاتهم وسعادتهم، وقيام دينهم ودنياهم؟"(٢).

ثانيها: **نقصان فهم الإنسان خاصة كلما بعد الزمان عن تنزل ذلك الوحي**، وهذا الذي أشار إليه حبر القرآن وترجمانه، فقد خلا عمر بن الخطاب ﷺ ذات يوم يحدث نفسه فأرسل إلى ابن

(١) كشف الظنون (١/ ٣٦)، ونقله عنه في أبجد العلوم (١/ ١٩٠).

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٣٢).

عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فقال: كيف تختلف هذه الأمة، ونبيها واحد، وكتابها واحد، وقبلتها واحدة؟...فقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يا أمير المؤمنين إنا أُنزِل علينا القرآن فقرأناه، وعَلِمْنا فيم أنزل، وإنه سيكون بعدَنا أقوام يقرأون القرآن، ولا يعرفون فيم نزل، فيكون لكل قوم فيه رأي، فإذا كان لكل قوم فيه رأي اختلفوا، فإذا اختلفوا اقتتلوا(١).

ثالثها: تفاوت الأفهام البشرية: فالأفهام تتفاوت في إدراك معاني الكلمات والجمل لبعد عهد بالعربية، أو لقصورٍ في الإحاطة بتراكيبها، وهنا يبحث المؤمنون عن المعاني الحقة، ويضل الفاسقون، فتكون الآيات عليهم عمى، والقرآن إنما نزل بلسان عربي مبين في زمن أفصح العرب، وكانوا يعلمون ظواهره وأحكامه، أما دقائق بواطنه فقد تخفى:

– **عن جمع العلماء فضلاً عن غيرهم** كما في آية (الظلم) المتقدمة.

–**وقد يكون الخفاء عن بعضهم فقط**: فلما نزلت: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، ، قال له عدي رضي الله عنه: يا رسول الله، إني أجعل تحت وسادتي عقالين: عقالاً أبيض وعقالاً أسود، أعرف الليل من النهار، فقال رسول الله ﷺ: «إن وسادتك لعريض، إنما هو سواد الليل وبياض النهار»(٢).

فنحن نحتاج إلى ما كانوا يحتاجون إليه وزيادة لقصورنا عن مدارك أحكام اللغة بغير تعلم.

رابعها: تجدد الأحداث مع ثبات النصوص: فإن القرآن المحدود الألفاظ يختزل المعاني غير المحدودة لتحيط بقضايا الناس، ونصوص القرآن الكريم جاءت ثابتة لا تتغير لكن معانيها تحتمل كل شيء تجدد في أقضية الناس وحياتهم؛ لأن الله ﷻ الذي خلقهم يعلم ما يكون منهم عند نزول القرآن وبعده ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤].

يمكننا أن نشبه المعاني المكتنزة في منصوص كلام الله ﷻ بالطبقات بعضها فوق بعض، يظهر الله منها لعباده في كل عصر عن طبقة لم يكن بمعلوم لمن سبقهم، وهذا معنى من معاني تجدد وتجديد فهم كلام الله وتفسيره، وعدم انقضاء عجائبه، مع ثبات حفظه من الزيادة والنقص.

---

(١) سنن سعيد بن منصور (١/ ١٧٦)، قال المحقق: الحديث صحيح لغيره، وأما هذا الإسناد فرجاله ثقات، إلا أنه ضعيف للانقطاع بين التيمي وعمر بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه، فإن التيمي لم يدرك زمن عمر رضي الله عنه".

(٢) مسلم (٢٥٠٠).

ولكن هذا الثبات في النصوص القرآنية مع شمول معانيها للأحداث المتجددة يحتاج إلى من يستنبط دخولَ الأحداث المتجددة في معاني تلك النصوص، كما قال تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ [النساء: ٨٣]، فبحث دخول المسألة في دلالة النص على اختلاف وجوهها أمرٌ "مطلوب لا مكروه، بل ربما كان فرضًا على من تعين عليه من المجتهدين"(١).

ومن ذلك ما يتعلق بتنزيل الآيات على الواقع، وأشار إلى ذلك حبر القرآن وترجمانه فيما ذكرناه قبل قليل.

فهل هذا يعني أنه سيأتي زمان لا يوجد مستنبطون لأحكام الأحداث الجديدة من القرآن الكريم؟

لا خوف! إذ لا بد أن تقام الحجة بمن يستنبط من القرآن مراد الله على الوجه الصحيح، فقد **قال معاذ بن جبل رضي الله عنه: (لم ينفك المسلمون أن يكون فيهم من إذا سُئل سُدِّد، وإذا قال وُفِّق)**(٢)، لكن القضية لا تكمن في وجود المستنبط على الوجه الصحيح، وإنما تكمن في اتباعه، وهذا لا يناقض ما افترضه إمام الحرمين أبو المعالي الجويني (ت ٤٨٧هـ) ﵀ من افتراض مجيئ زمان يخلو من حملة للشريعة(٣)؛ إذ إن ما قررناه إنما هو على سبيل الأغلبية، ومعلوم أن من أشراط الساعة أن تقوم على شرار الناس، وأن يرفع القرآن.

لكن كل ذلك وما سيأتي في هذا الكتاب يحمل الإنسان على التفكير كثيرًا عند الجرأة على محاولة تفسير القرآن الكريم؛ "فإن التكلم في تفسير القرآن ليس بالأمر السهل، وربما كان من أصعب الأمور، وأهمها، وما كل صعب يترك.. ووجوه الصعوبة كثيرة، أهمها: أن القرآن كلام سماوي، تنزل من حضرة الربوبية التي لا يُكتنه كنهها، على قلب أكمل الأنبياء ﷺ، وهو يشتمل على معارف عالية، ومطالب سامية، لا يشرف عليها إلا النفوس الزاكية والعقول الصافية، وإن الطالب له يجد أمامه من الهيبة والجلال، الفائضين من حضرة الكمال ما يأخذ بتلابيبه، ويكاد يحول دون مطلوبه، ولكن الله ﷻ خفف علينا بأن أمرنا بالفهم والتعقل لكلامه"(٤).

---

(١) فتح الباري (١٣/ ٢٦٧).

(٢) الدارمي (١٥٥)، وقال المحقق: إسناده صحيح.

(٣) غياث الأمم (ص: ٤١٧).

(٤) هذا الكلام المتين لمحمد عبده في كتابه: مشكلات القرآن، وتفسير سورة الفاتحة مع مقدمة في التفسير وثلاث مقالات (ص: ٩).

وصاغ هذه الحقيقة الشيخ الطالب زيدان –وفقه الله–:

إنَّ احْتِيَـــاجَ الـــذِّكْرِ للتَّفْسِـــيرِ مِـــنْ كُـــلِّ حِـــبْرٍ رَاسِـــخٍ نِحْريـــرِ

سَـــبَبُهُ الكَمَـــالُ للقُـــرْآن أصَـــالَةً والـــنقْصُ للإنْسَـــانِ

بصائر المعرفة القرآنية
قرآن يتلىٰ لإنسانية ترقىٰ

الأساس الثامن: أنواعُ التفسير:

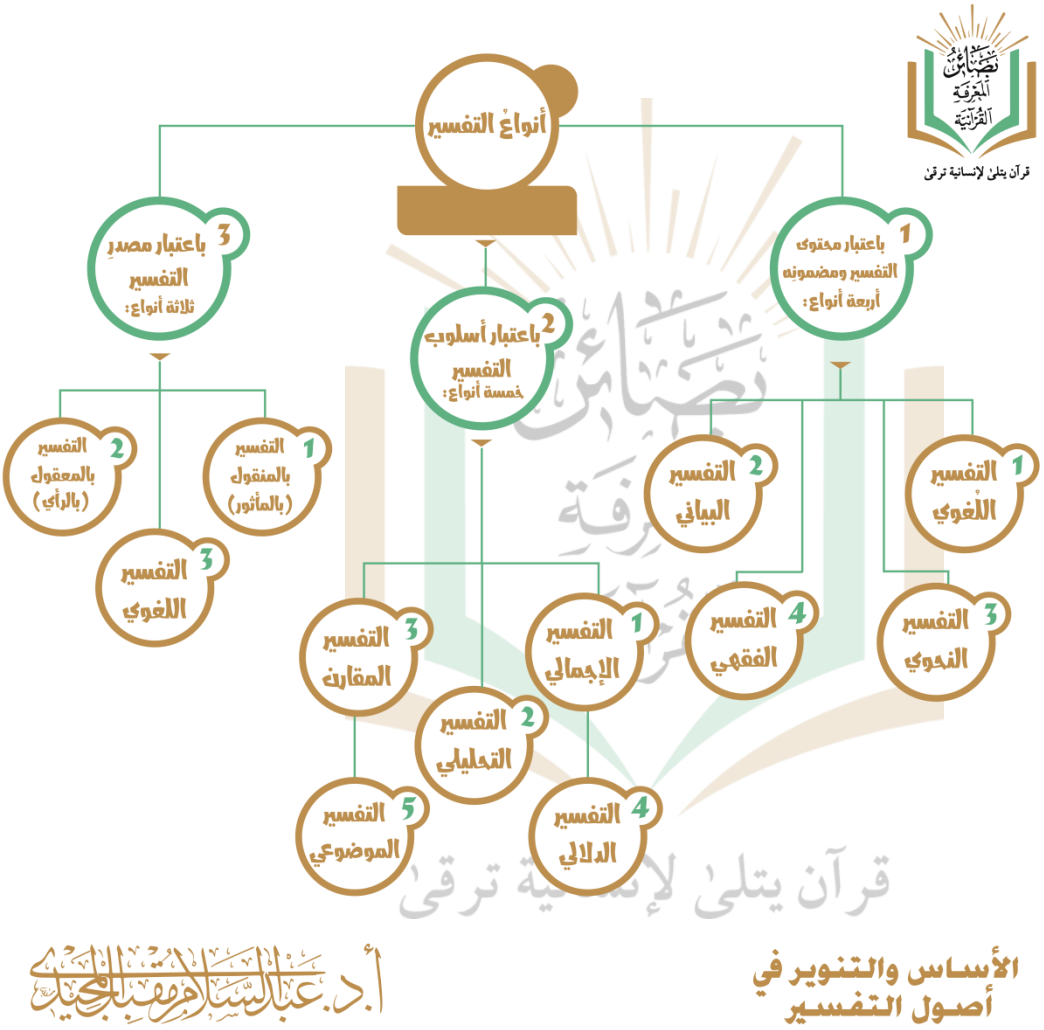

تتعدد أشكال التفسير القرآني باعتبارات محددة لتقسيمها، وَلْنُشِرْ ها هنا إلى أهم هذه التقسيمات:

ما أنواع التفسير باعتبار محتوى التفسير ومضمونه؟

التقسيم الأول: باعتبار محتوى التفسير ومضمونه:

تقسيم تفسير القرآن هنا بناء على أن القرآن يحتوي أصول العلوم الإنسانية على الأقل، فيجب -كما يقرر الأستاذ محمود شاكر ﷺ تعالى- أن يكون أصل الأصول في دراسة الأدب والتاريخ معًا

هو النظر في كتاب الله تعالى باعتباره حادثة فريدة في تاريخ البشرية، وتجليًا مذهلاً للعلوم بحسب مفهوم الإعجاز[١]، وعلى هذا يمكن أن يقسم التفسير إلى الأنواع الآتية:

النوع الأول: التفسير اللُغوي: ببيان معنى المفردة القرآنية من حيث أصل وضعها اللغوي ، كأسئلة نافع بن الأزرق لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ومعظم التفاسير تتضمن هذا النوع، كتفسير الطبري، ومعاني القرآن للنحاس، والزجاج، والفراء، ويدخل فيه تفسير غريب القرآن، ومن أمثلة الكتب المتأخرة التي عُنيت به: تفسير الجلالين، وتفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي، ومفاتح فهم القرآن لشيخنا الدكتور أحمد الإمام –رحمة الله عليهم جميعًا–.

النوع الثاني: التفسير البياني: ويبحث عن أوجه الإعجاز البيانية والبلاغية في المفردة أو الجملة القرآنية كتفسير الكشاف للزمخشري، وملاك التأويل للغرناطي، وتفسير أبي السعود، والتحرير والتنوير، ثم ألفت فيه مؤلفات مستقلة كالتفسير البياني لبنت الشاطئ، والتعبير القرآني، ولمسات بيانية للدكتور فاضل السامرائي...وظهر للرافعي جهد متفرق في كتبه منها وحي القلم، وإعجاز القرآن، ولسيد قطب قصب سبق فيه؛ حيث ظهر ذلك بجلاء في تفسيره (الظلال) الذي اعتمد فيه على ما سطره في كتابه (التصوير الفني في القرآن الكريم)؛ حتى ليمكن اعتباره مقدمة للظلال.

النوع الثالث: التفسير النحوي: وفيه بيانٌ لإعراب القرآن الكريم، وللمشكلات النحوية من خلال القرآن، كتفسير البحث المحيط، لأبي حيان، والدر المصون لتلميذه السمين الحلبي، وإعراب القرآن للعكبري، والفريد في إعراب القرآن المجيد، للهمداني، كما أن التفاسير المذكورة في التفسير البياني لها اعتناء بالتفسير النحوي، ونجد كتبًا معاصرةً حاولت استخلاص نظريةٍ للنحو القرآني، كـ(النحو القرآني) للدكتور أحمد الأنصاري، وقد أحدث لغطًا.

النوع الرابع: التفسير الفقهي: ويختار المفسر فيه آيات الأحكام فيجعلها أهم مواد تفسيره ويقوم بتحليلها، ومن أهم الكتب المؤلفة فيه كتب أحكام القرآن: للإمام الشافعي، والجصاص، وابن العربي، وغيرهم، وأطلق عليه عند المتأخرين آيات الأحكام غير أن بعض المفسرين لا يقتصر عليها بل يفسر القرآن كله ويجعل آيات الأحكام أهم ما ينظر إليه، كما فعل القرطبي في تفسيره.

(١) محمود شاكر لعمر حسن القيام (ص:١١).

وعلى هذا المنوال يمكن إضافة: التفسير التاريخي أو القصصي الذي يتناول قصص القرآن، أو يفسر التاريخ بحسب ما ورد في القرآن، وعلى هذا المنوال يمكن إضافة التفسير الفني، أو التصويري الذي يتكلم على التصوير الفني والتفاعلي في القرآن الكريم.

ما أنواع التفسير باعتبار الأسلوب؟

التقسيم الثاني: باعتبار أسلوب التفسير:

ينقسم التفسير باعتبار الأسلوب إلى الأنواع الآتية:

النوع الأول: التفسير الإجمالي: وفيه يشرح المفسر المعنى العام للآيات إجمالاً، مع بيان غريب الألفاظ والربط بين المعاني في الآيات بعبارة سهلة توضح مقاصدها، وقد يضيف ما تدعو الضرورة إليه من سبب نزول أو قصة أو حديث ونحو ذلك. ومن التفاسير التي اعتنت بذلك: أيسر التفاسير لأبي بكر الجزائري المعاصر، ومن الكتب التي اعتنت بذلك على وجه دقيق في ظلال القرآن لسيد قطب رحمه الله وبالأخص في مقدمات تفسير السور، فهو -وإن كان ينتمي للتفسير البياني والتصويري والفني- فإنه يعطي المعنى الإجمالي للآيات التي يحللها ابتداء.

وقد يطلق على هذا النوع من التفسير: التفسير (الجملي) أخذًا من الجملة، وهي جمع المتفرقات كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾ [الفرقان:٣٢]، واستخدم هذا المصطلح (التفسير الجملي) المراغي في تفسيره.

النوع الثاني: التفسير التحليلي (ويسمى: الموضعي، أو التجزيئي): وهو يقابل التفسير الإجمالي، وكلمة (التحليل) لغة مشتقة من الحَل بمعنى: النقض للمنعقد، والفتح للمغلق، يقال: «حلّ العقدة يحلها حلاًّ: فتحها ونقضها، فانحلت»[(١)]، وكأن المفسر فيه يحلل المعقود من الكلمة القرآنية ليصل إلى تفاصيل معانيها، فيهتم المفسر بتحليل الآيات القرآنية وتفصيلها آية آية تبعًا لتسلسل تدوين الآيات في المصحف الشريف شارحًا كل ما يتعلق بها من اللغة والنحو والغريب والحديث والروايات التاريخية، والفقه والقراءات وعلم الكلام، وقد يهتم بذكر الروابط بين الآيات والمناسبات بين السور ونحو ذلك، ويمكن التمثيل لهذا النوع: بتفسير جامع البيان للطبري، وتفسير مفاتح الغيب لفخر الدين الرازي، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي، وفتح القدير للشوكاني، وروح المعاني للآلوسي، والتحرير والتنوير...مع تفاوت بينها.

(١) تاج العروس (٢٨/٣٣١).

والتفسير التحليلي يشكل معظم الثروة التفسيرية التي بين أيدينا، ويحتاجه المفسرون الذين يكتبون في الأنواع المقابلة له؛ إذ يمكن أن يمثل المرحلة الأولى للتفسير الإجمالي أو الموضوعي أو المقارن؛ فمن خلال التفسير التحليلي تُعرف الحقائق اللغوية والشرعية للمفردات القرآنية، وتظهر المناسبة والاتصال بين الكلمات والجمل التي تُكَوِّنُ الآيات، كما يظهر علم الاتصال القرآني بين الآيات التي تُكَوِّن السور، وفيه يظهر الثراء المعنوي للكلمات القرآنية، ويلوح واضحًا الإعجاز التصويري للقراءات القرآنية، وتتبدى وجوه الإعراب المختلفة، كما تتضح الدلالات التركيبية، فالمفسر في الأنواع الأخرى بأمس الحاجة إليه ليهتدي للمعنى الذي تدل عليه الآيات، من غير تعجلٍ في تقرير معنى قد يظهر الصواب خلافه عند تفصيل الآيات.

ولا بد أن يتشبع المفسر هنا بالنصوص الأثرية والعلوم اللغوية والبلاغية ليتسم بالعمق المطلوب، ويتمكن من التحليل الدقيق للآية، ويصل إلى أسرار الآيات وبياناتها المعجزة التي تظهر من قوة التدبر، وصفاء التفكر.

النوع الثالث: التفسير المقارن: وفيه يقرن المفسر بين أقوال المفسرين ويوازن بينها، والقرن ربط لأقوال المفسرين بعضها ببعض، وعند الربط ينظر فيها ثم يوازن بينها، وقد يرجح قولاً منها، وليس المقصود بالمقارن مجرد الربط فقط، فالمصطلح أوسع من المعنى اللغوي، ويمكن التمثيل له بتفسير الطبري، وكذلك تفسير ابن أبي حاتم لكنه يلتزم المأثور، وكذلك تفسير مفاتح الغيب للرازي، ونحوه كتفسير (فتح القدير) للشوكاني.

النوع الرابع: التفسير الدلالي: وهو يهتم بالبحث عن دلالة لفظة معينة في القرآن الكريم، ومن أنفع الكتب المؤلفة فيه: المفردات للراغب الأصفهاني، و(مفردات القرآن) لعبد الحميد الفراهي، والمعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم للدكتور/ محمد حسن جبل، وقد يسمى هذا عند علمائنا: علم الوجوه والنظائر في التفسير.

النوع الخامس: التفسير الموضوعي: وقد يسمى التفسير التوحيدي، وهو يهتم بألوان محددة من التفسير:

اللون الأول: موضوع السورة الواحدة أي محورها العام الذي تدور عليه آياتها، ومقاطعها.

اللون الثاني: موضوع قرآني معين: فيجمع فيه جميع الآيات التي تتكلم عليه كآيات الصبر في القرآن، وآيات العلم، وآيات قصة موسى عليه السلام مثلاً، والسلم الاجتماعي في القرآن الكريم وهكذا،

اللون الثالث: موضوع قرآني معين في سورة بعينها: كالجدل في سورة الأنعام، والنظام الاجتماعي في سورة النور.

اللون الرابع: المصطلح القرآني: كأن يتتبع مصطلح الإيمان أو الكفر في القرآن الكريم.

وربما تساءلت: ما الهدف من التفسير الموضوعي؟

الجواب: الهدف من التفسير الموضوعي بيان الرؤية القرآنية للقضايا العامة والتفصيلية في شؤون الحياة الدينية والدنيوية.

فإن قلت: ما أبرز التفاسير التي تعنى بالتفسير الموضوعي، أو بجانب من جوانبه؟

الجواب: من أبرز التفاسير التي اعتنت بجانب من هذه الجوانب: تفسير المنار لمحمد رشيد رضا، وتفسير الظلال لسيد قطب، ومؤخرًا أنتجت لجنة من العلماء المعاصرين في جامعة الشارقة كتابهم (التفسير الموضوعي) في عشرة مجلدات، كما شرع مركز (تفسير) في كتابة تفسير كبير في موضوعات القرآن الكريم، ومشروعي (بصائر المعرفة القرآنية) ينتمي إلى هذا النوع كما يمكنك أن تنسبه إلى عدد من الأنواع السابقة.

وقد تسأل: ما الفرق بين التفسير الموضوعي والتفسير الدلالي؟

الجواب: الفرق بينه وبين التفسير الدلالي في أن اللفظة التي تذكر هنا يراد بحثها من حيث إنه موضوع معين لا من حيث إنها لفظة نريد البحث عن دلالتها في القرآن: فكلمة الأمة إذا أراد حصر دلالاتها في القرآن الكريم سمي هذا علم الوجوه والنظائر، وصار التفسير دلاليًا، وإذا أراد الباحث الكلام عن موضوع الأمة وكيفية تكوينها، ومرتكزاتها في القرآن الكريم صار التفسير موضوعيًا.

ما أنواع التفسير باعتبار مصدر التفسير؟

التقسيم الثالث: باعتبار مصدرِ التفسير:

يرجع التفسير باعتبار مصدره إجمالاً إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: التفسير بالمنقول (بالمأثور): أي: تفسير القرآن بالقرآن؛ إذ لا أحد أعلم من الله بكتابه ، وبما نُقِلَ عن الرسول ﷺ في سنته، وعن الصحابة الكرام رضي الله عنهم في أحاديثهم التي لها حكم الرفع، أو فيما أجمعوا عليه، ويسمى: تفسيرًا بالرواية، ومن أبرز المؤلفات فيه: تفسير الطبري، وابن أبي حاتم، وابن كثير، وما جمعه السيوطي في الدر المنثور، ومؤخرًا أصدر مركز الشاطبي في جدة موسوعته حول التفسير بالمأثور، وليتهم حكموا على تلك الروايات.

النوع الثاني: التفسير بالمعقول (بالرأي): أي: ما كان مصدر التفسير فيه الاجتهاد، والاستنباط من لدن الصحابة رضي الله عنهم، وحتى يرث الله ﷻ الأرض ومن عليها سواءً أكان هذا الاستنباط صحيحًا أم فاسدًا، ومن أبرز أمثلته: تفسير الزمخشري، والرازي، والبقاعي، والطاهر بن عاشور.

ويجمع النوعين: جامع البيان للطبري، وفتح القدير للشوكاني، وتفسير المنار لمحمد رشيد رضا رحمهم الله أجمعين.

النوع الثالث: التفسير اللغوي: أي ما أرجع المفسر فيه تفسير اللفظة أو التركيب إلى اللغة، وقد يدْخلُ هذا النوعَ الاجتهادُ إذا كان أصلُ الكلمة اللغوي محتملاً.

هل وصف تفسير ما بوصف محدد ينفي وصفه بوصف مقابل، كأنْ نَصِفَ تفسيرًا بأنه تفسير بالمأثور، فهل يعني هذا أنه لا يوجد فيه تفسير بالرأي؟

الجواب: يظهر في هذه القاعدة المنهجية:

قاعدة (في مناهج المفسرين): كثير من كتب التفسير تتداخل الأوصاف فيها، ووصف كتابٍ في التفسير بوصفٍ معين لا يعني نفيَ صفاتٍ أخرى يتسم بها، بل يعني بروز هذه الصفة أكثر من غيرها:

وحصره في هذا الوصف يؤدي إلى ظلم التفسير والمفسِّر معًا.

فإن سألت: هلَّا ذكرت مثالًا يوضح هذه القاعدة؟

الجواب: مثال ذلك: إذا حصرت تفسير الطبري في التفسير بالمأثور، أو حصرت تفسير أبي حيان في التفسير النحوي فإنك تظلمهما؛ إذ يحويان غير ذلك من الفوائد العزيزة الغزيرة، فتفسير الطبري: تفسير بالمأثور، وهو تفسير لغوي، وهو تفسير بالرأي.

ومثل ذلك تفسير أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي (ت ٤٢٧هـ) عده محمد حسين الذهبي (ت١٣٩٨هـ) في كتابه الماتع (التفسير والمفسرون) ضمن التفسير بالمأثور مع أنه كما ينقل ياقوت: التفسير الحاوي أنواع الفرائد من المعاني والإشارات، وكلمات أرباب الحقائق، ووجوه الإعراب والقراءات[1].

(١) معجم الأدباء (٢/ ٥٠٧).

الأساس التاسع: بين التفسير والتأويل:

جرى المفسرون على استخدام مصطلحين في بيانهم لمعاني القرآن الكريم: التفسير والتأويل، فلا بد من معرفة العلاقة بينهما:

ما تعريف التأويل؟

تعريف التأويل:

التأويل لغة: يرجع إلى معان ثلاثة:

١) أن يكون مأخوذًا من الأَوْلِ وهو الرجوع، فـــآل إليه أَوْلاً ومآلاً: رجع[١]، وفي الحديث: « لا صام ولا آل من صام الأبد»[٢] أي: ولا رجع إلى خير[٣]، وعلى هذا فمعنى: أَوَّلَ الكلام أي أرجعه إلى معناه الأصلي بتدبره، وتقدير معناه، وتفسيره كما قال الفيروز أبادي[٤].

والموئل هو الموضع الذي يرجع إليه ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ [الكهف: ٥٨].

٢) أن يكون مأخوذًا من آل إيالة أي ساسه سياسة بما يصلحه[٥]، وقال ابن فارس: "وتقول العرب في أمثالها: "أُلْنَا وإيلَ عَلَيْنا" أَي سُسْنا وساسَنا غيرُنا"[٦]، وعلاقة الإيالة بالكلام كأن المؤول يسوي الكلام ويضع المعنى في موضعه ويصلحه[٧]، كالسائس (السياسي) يفترض أنه يقوم بالأفعال التي تصلح الرعية.

٣) أن يكون أصله من المآل وهو العاقبة والمصير، فإرجاع الكلمة إلى مآلها وعاقبتها (مرجعها) أي إلى معناها وتفسيرها، وهذا المعنى كالأول، فكأن التأويل صرف الآية إلى ما تحتمله من المعاني[٨].

إذا كان هذا معنى لفظ التأويل بأصل الوضع اللغوي، فما المراد بها في كلام أهل العلم؟

---

(١) انظر: القاموس المحيط (٣/٥٢)، لسان العرب (٥/ ٥٥).

(٢) انظر: مسند إسحاق بن راهويه (٥/ ١٦٤)، قال محقق الكتاب:" في إسناده ليث بن أبي سليم، ترك حديثه لاختلاطه، وعدم تميز حديثه قبل الاختلاط من بعده"، وأخرجه أحمد (٢٧٦١٧) بلفظ:" لا صام من صام الأبد"، قال الأرناؤوط: مرفوعه صحيح لغيره، وهذا إسناد ضعيف لضعف ليث –وهو ابن أبي سليم– وشهر بن حوشب".

(٣) انظر: لسان العرب (١١/ ٣٢).

(٤) انظر: القاموس المحيط (٣/٥٢).

(٥) انظر: أساس البلاغة (ص: ١٤).

(٦) معجم مقاييس اللغة (١/١٦٠).

(٧) البرهان (٢/ ١٤٨)، ونقله الذهبي في التفسير والمفسرون (١/١٨).

(٨) البرهان (٢/ ١٤٨).

الجواب: إنك عندما تتدبر كلام أهل العلم تجد أن ما أوردناه في التعريف اللغوي هو معنى التأويل عند المتقدمين، وأنت عند جمعك لهذه المعاني المذكورة آنفًا لا تجد بينها كبير تنازع أو اختلاف، بل يكون معنى التأويل: سياسة الشيء بما يناسبه لإرجاعه إلى عاقبته ومصيره وغايته المرادة منه على نحوٍ ما سواء أوافق ظاهره أم خالفه، والغاية المرادة منه قد تكون علمًا، وقد تكون واقعًا:

فأما التأويل في العلم، فنحو: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ (آل عمران: ٧) على مذهب عطف (الراسخون) على لفظ الجلالة، والمعنى: وما يرجع ألفاظه إلى معانيها الصحيحة إلا الله.

فالتأويل والتفسير على هذا متقاربان، وهذا ما عناه مجاهد ﷺ في قوله: «﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾: يَعْلَمون تأويله»(١)، لأنه يكون بمعنى التفسير، وهو أيضًا ما يعنيه ابن جريرٍ الطبريُّ بقوله: «القول في تأويل قوله تعالى كذا»، فالتأويل بذلك يعني حقيقة الكلام اللفظية، وهو معنى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا﴾ [الكهف: ٨٢] أي: تفسير ما لم تسطع عليه وحقيقته.

وأما التأويل في الواقع فكقوله تعالى: ﴿هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله﴾ (الأعراف:٥٣) أي: واقعه الحقيقي الذي آل إليه.

فالتأويل هو المصير الحقيقي للكلام والعاقبة التي يظهر منها تجسد المعنى، فهو نفس المراد بالكلام واقعًا:

فإن كان الكلام طلبًا كان تأويلُه نفسَ الفعل المطلوب، وإن كان خبرًا كان تأويله وقوع نفس الشيء المخبر به، وبين هذا المعنى والذي قبله فرق ظاهر، فالذي قبله يكون التأويل فيه من باب العلم والكلام، كالتفسير والشرح والإيضاح، وأما هذا فالتأويل فيه نفس الأمور الموجودة التي تحدث في الخارج، فإذا قيل: طلعت الشمس، فتأويل هذا هو نفس طلوعها، فالمراد هنا المصير في الواقع، وأما الأول فيراد به المصير في معنى اللفظ.

فإن قلت: هلَّا ضربت لنا مثالًا يوضح ذلك؟

مثال من كلام الله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [هود: ١١٤]

(١) تفسير مجاهد (ص: ٢٤٩)، تفسير الطبري (٦/٢٠٣).

تأويله على المعنى الأول: تستطيع أن تقول فيه: يأمرنا الله بأن نؤدي الصلاة قائمين بحقوقها، فنقيم أركانها وواجباتها ونلزم شروطها، ونأتي بها حقيقة وصورة.

تأويله على المعنى الثاني: أن تصلي أو أن تردد كلمات الإقامة لو كان الخطاب للمؤذن.

وهذا في نظر ابن تيمية هو لغة القرآن التي نزل بها. ومنه قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ...﴾ [الأعراف: ٥٣] أي: هل ينظرون إلا حقيقته المتجسدة وعاقبته الواقعية القادمة التي يصير إليها في المستقبل.

قاعدة: ترجع معاني التأويل في القرآن الكريم إلى الرجوع والحقيقة والكشف:

فالناظر في القرآن الكريم يجد أن لفظ التأويل قد ورد على معانٍ ترجع إلى المعاني اللغوية السابقة وليست على معانٍ مختلفة كما ذكر د/ محمد حسين الذهبي ﷾، فمن ذلك قوله تعالى في سورة آل عمران آية (٧): ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فهو في هذه الآية بمعنى ابتغاء عاقبته ومآله بتفسيره وتعيينه وكشف المراد منه، وكذلك في بقية المواضع إلا أنه يراد به أحيانًا الحقيقة العامة للمعنى، وأحيانًا الحقيقة المنظورة للمعنى، وأحيانًا الحقيقة الكلامية للمعنى.

ما خلاصة الفرق بين التفسير والتأويل، والنسبة بينهما؟

بالغ بعضهم في الاهتمام بهذا المبحث حتى قال الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري (ت ٤٠٦هـ) ﷺ: «نبغ في زماننا مفسرون لو سئلوا عن الفرق بين التفسير والتأويل ما اهتدوا إليه»[(١)]، وممن ألف في الفرق بينهما الشيخ حامد بن علي الدمشقيُّ العماديُّ (ت١١٧١هـ) ﷺ فله: "التفصيل في الفرق بين التفسير والتأويل"[(٢)]، ويظهر لي أنك ينبغي أن تنحاز بفكرك جانبًا عن الإيغال في مثل ذلك؛ إذ لا يعدو الفرق بينهما أن يكون مسألة نظريةً.

ومجمل استعمالات العلماء للعلاقة بين التفسير والتأويل ترجع إلى ثلاثة استعمالات:

(١) الإتقان ٢/ ٤٠، وانظر: التفسير والمفسرون (١/٢١).

(٢) سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر (١/ ١٨٤).

أولاً: الترادف: وهذا هو الشائع عند المتقدمين من علماء التفسير، ومثل ذلك ما نقله ابن منظور ﵀ عن بعض علماء العربية[١]، وهو استعمال بعض المفسرين كالإمام الطبري ﵀.

ثانيًا: العموم والخصوص: فالتفسير أعم؛ إذ هو الكشف عن المعاني المختلفة، وقد يتعلق الكشف بالبيان اللغوي، وقد تجد الكشف في الرواية المأثورة، وقد تجده في الاجتهاد التفصيلي، والتأويل أخص؛ إذ يتعلق بالدراية أو الاجتهاد أو البحث عن المعاني الدقيقة.

ثالثًا: التباين: فالتفسير ما يرجع إلى الرواية، أو إلى المعنى المباشر، والتأويل ما يرجع إلى الدراية، أو المعنى غير المباشر، والتأويل بالعلاقة الثانية والثالثة ثلاثة أنواع كما سبق.

ما سبب هذا الاختلاف؟

الجواب: سبب الاختلاف بينهم: اختلافهم في استعمال هذا المفهوم أو ذاك الاصطلاح من علمٍ إلى علم آخر أو من فنٍ إلى فنٍّ آخر، أو اختلاف استعمال ذاك المصطلح بين المتأخرين والمتقدمين...وفهم هذا يترتب عليه حلُّ إشكالات كثيرة، كما يترتب عليه استيعاب أساليب أهل العلم في التعبير...وقد وردت كلمة التأويل في اللغة بمعنى عام هو الرجوع، أو إرجاع الأمر وإصلاحه...ثم قصره الأصوليون على معنى معين، فبعضهم جعل التأويل بالمعنى العام التفسير، وبعضهم قصره على المعنى الاصطلاحي الخاص الذي ذكرنا بأنه ينقسم إلى ثلاثة أقسام[٢].

ما معنى التأويل عند المتأخرين؟

التأويل في اصطلاح المتأخرين:

هو صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليلٍ يقترن به، وهذا هو التأويل الذي يتحدثون عنه في التفسير أحيانًا، وفي أصول الفقه ومسائل الخلاف دائمًا:

فإذا قال أحدهم: هذا النص محمول على أن يكون معناه كذا، وذكر معنىً محددًا بعيدًا عن المعنى المباشر. قال الآخر: هذا نوع تأويل والتأويل يحتاج إلى دليل، وعلى هذا فالمتأول مطالب بأمرين:

الأمر الأول: أن يبين احتمال اللفظ للمعنى الذي حمله عليه وادعى أنه المراد.

الأمر الثاني: أن يبين الدليل الذي أوجب صرف اللفظ عن معناه الراجح إلى معناه المرجوح:

فإذا بينه كان التأويل صحيحًا.

---

(١) انظر: لسان العرب (٥/ ٥٥).

(٢) انظر التفسير والمفسرون (١/ ٢١).

وإن كان اللفظ محتملاً للمعنيين، ولم يأت المؤول بالدليل صار تأويلاً فاسدًا.

فإن لم يأت بالأمرين معًا كان تلاعبًا بالنصوص.

اذكر مثالًا يوضح معنى التأويل عند المتأخرين.

مثال ذلك: كلمة الضحى:

يقول القائل بالظاهر: المراد بالضحى: الوقت ما بين الشروق إلى الزوال.

فيقول المؤول: بل المراد النهار كله.

فيقول القائل بالظاهر: ما الدليل على تأويلك؛ لأن الأصل معي، وإن كان تأويلك محتملاً.

فإن أتى بدليل صحيح، فهو التأويل الصحيح، وإن أتى بدليل يحتمل قوله، ولكنه غير مقبول عند النظر فتأويله فاسد.

فإن قال ثالث: المراد بالضحى الليل. فعند ذلك يقول الطرفان السابقان: هذا تلاعب.

اذكر أنواع التأويل عند المتأخرين.

التأويل عند هؤلاء –كما رأيت– ثلاثة أقسام:

- **صحيح**، إن كان الدليل صحيحًا بعد النظر والمقارنة، فهذا القسم هو القريب المقدَّم بأدنى نظر.
- **وفاسدٌ**، إن كان الدليل مظنونًا، ولم يصح بعد النظر والمقارنة عند الناظر.
- **ولعبٌ**، إن لم يوجد دليلٌ بل وضع المعنى للهوى والتشهي.

وقد قال السيوطي (ت٩١١هـ) في الكوكب الساطع في الأنواع الثلاثة:

الظاهر الدالُّ برجحانٍ، وإن ... يُحْمَلْ على المرجوحِ تأويلٌ زُكِن

صحيحٌ إن كان دليلٌ، أو حُسِب ... ففاسدٌ، أو لا لشيءٍ فلعب[1]

اذكر مثالًا لكل نوع من أنواع التأويل عند المتأخرين.

ومن أمثلة ذلك:

(١) انظر: الكوكب الساطع (ص:٢٤١).

مثال التأويل الصحيح (القريب): قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ...﴾ [المائدة: ٦] أي: عزمتم على القيام إليها، والدليل أن هذا أسلوبٌ عربيٌّ معتاد حيث يستخدم الماضي في مثل هذه الأحوال ويراد به المستقبل.

ومثال التأويل الفاسد (البعيد) (عند المالكية لا عند الحنفية): ﴿فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗاۚ﴾ [المجادلة: ٤]، أَوَّلَه بعضهم بالمُدِّ، فجعلوا (المُد) الذي لم يُذكر في الآية هو الأصل، و(المسكين المذكور فيها غير مقصود، كما قال الشَّيْخ سيدي عَبْد اللهِ بْنِ الحَاجِّ إِبْرَاهِيْمَ الْعَلَوِيّ الشَّنْقِيْطِيّ (ت١٢٣٠هـ) ﵀ في مراقي السعود[1]:

فجعلُ مسكين بمعنى المد ... عليه لائحُ سماتُ البعد

وإليك حوارًا في تأويل قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ﴾ [آل عمران: ١٣٠] بين أطراف ثلاثة، كل منها ينصر نوعًا من أنواع التأويل:

الطرف الأول (التأويل الصحيح) يقول: الربا كله محرم سواء أكان قليلاً أم كان كثيرًا.

الطرف الثاني: (التأويل الفاسد): الآية تدل على أن الربا فقط فيما كان أضعافًا مضاعفة في الورق النقدي، ويترتب على ذلك القول بعدم الربا في الأوراق النقدية إذا كانت النسبة الربوية محدودة، اعتمادًا على أنه نصَّ على الأضعاف المضاعفة في الآية.

الطرف الثالث (اللعب): لا ربا في الأوراق النقدية لا في القليل ولا في الكثير؛ لأن الأوراق النقدية لم تكن عند نزول الآية.

فيرد التأويل الصحيح، فيقول: أما أنت يا أيها الطرف الثالث، فتتلاعب بالآيات؛ فإن الربا الذي نزلت فيه الآية يتعلق بالثمنية، وكان الناس زمن النبي ﷺ يرابون بأن يأخذ الواحد مقابل قرضه زيادة مالية ربما كانت يسيرة، ثم يزيد حتى تصبح أضعافًا مضاعفة، ثم يزيد حتى يتملك المقترضَ أو أبناءه، فنفيك للربا في الأوراق النقدية لعب؛ فإنها أداة التبايع والمعاوضة.

ويرد على التأويل الفاسد فيقول له: قول الله ﷻ: ﴿أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾ وصفٌ واقعي لا تأسيسي[2]، أي إن الله ﷻ وصف لهم مآلات الربا الجاهليّ عندهم، فيبدأ صغيرًا ثم ينمو حتى يصير

(١) انظر: نثر الورود على مراقي السعود (١/ ٣٣٠).

(٢) سيأتي بيان الفرق بين الوصف الواقعي والوصف التأسيسي لاحقًا في القسم الرابع من هذا الكتاب.

أضعافًا مضاعفة، سواء أكان في الذهب أم فيما يقابله من الورق النقديّ حاليًّا؛ وحتى يبيع الإنسان نفسه وولده، وأنت ترى أن الدول التي تتعامل بذلك هذه الأيام أسيرة لهذه المعاملة المجرمة، وعند نظرك في تحريم الربا في القرآن الكريم تجد أنه حُرِّم لأصل وجود المراباة مهما قلت، فقد ذكره الله – تعالى مجده– في سورة الروم وهي مكية، فقال: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٩]، ثم ذكره في آخر ما نزل في سورة البقرة، ونهى عن أخذ الربا مهما قلَّ فقال: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨].

فاتضح لنا أن تأويل آية آل عمران بأن الربا لا يكون إلا في الأضعاف المضاعفة تأويل فاسدٌ؛ إذ إن آية آل عمران بين الروم والبقرة نزولاً.

ولنضرب مثلاً رابعًا: لعَلَمٍ شامخٍ من أعلام مفسري الدنيا هو الإمام الزمخشري ﵀ فقد افتعل التعارض بين آياتٍ، ولجأ فيها إلى تأويلٍ فاسدٍ، فقال تعليقًا على قوله –تعالى ذكره–: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]:

" فإن قلت: ما معنى الختم على القلوب والأسماع وتغشية الأبصار؟ قلت: لا ختم ولا تغشية ثَمَّ على الحقيقة، وإنما هو من باب المجاز، ويحتمل أن يكون من كلا نوعيه وهما الاستعارة والتمثيل... فإن قلت: فلم أُسنِدَ الختمُ إلى الله تعالى، وإسناده إليه يدل على المنع من قبول الحق، والتوصل إليه بطرقه، وهو قبيح، والله يتعالى عن فعل القبيح علوًا كبيرًا لعلمه بقبحه، وعلمه بغناه عنه، وقد نصَّ على تنزيه ذاته بقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩]، ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف: ٢٨]، ونظائر ذلك مما نطق به التنزيل؟

قلتُ: القصد إلى صفة القلوب بأنها كالمختوم عليها. وأما إسناد الختم إلى الله ﷻ، فَلِيُنَبِّه على أنّ هذه الصفة في فرط تمكنها وثبات قدمها كالشيء الخَلْقي غير العَرضي. ألا ترى إلى قولهم: فلان مجبولٌ على كذا ومفطور عليه، يريدون أنه بليغ في الثبات عليه. وكيف يُتخيل ما خُيِّل إليك وقد وردت الآية ناعيةً على الكفار شناعةَ صفتهم وسماجة حالهم، ونيط بذلك الوعيد بعذابٍ عظيم؟"[(١)].

(١) الكشاف (١/ ٤٩).

نرد على هذا الإمام ﷺ بأن نقول: تأويلك فاسدٌ؛ إذ إن خَتْمَ الله على قلوبهم كان عقوبة على كفرهم ابتداء؛ فإن الله ﷻ وصفهم بالكفر في الآية السابقة. فهل أعمى التعصب المذهبي عينَ إمامٍ في اللغة والتفسير –كالزمخشري– حتى ضرب كتاب الله بعضه ببعضٍ، ثم التمس له مخرجًا من تأويله؟

ونعود، فنقول له: إن ختم الله ﷻ على قلوبهم إنما هي عقوبةٌ لأفعالهم؟ وهل عقوبة الله ﷻ لمن كفر وعاند مهما حُذِّر وأُنذِر تُعدُّ ظلمًا؟ ألم يبين الله ﷻ لماذا أضل هذا الصنف السيء بعد هذه الآية ببضع آيات؟ فقال: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٦، ٢٧]، وقال في السورة ذاتها: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ﴾ [البقرة: ٨٨]؟.

اضرب مثالاً على اللعب في التأويل.

من أمثلة اللعب في التأويل:

أسند الثعلبي ﷺ في تفسيره كلامًا مكذوبًا أسنده الكاذبون عن سفيان الثوري ﷺ في قول الله سبحانه: ﴿مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ١٩ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩-٢٠] قال: فاطمة وعلي ﴿يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾[الرحمن:٢١] قال: الحسن والحسين، ثم قال الثعلبي: وروي هذا القول أيضا عن سعيد بن جبير ﷺ، وقال: بَيْنَهُما بَرْزَخٌ محمد ﷺ[1]، وأسند الثعلبي ﷺ أيضًا عن ابن سيرين في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗاۗ﴾ [الفرقان: ٥٤]قال: نزلت في النبي ﷺ وعلي بن أبي طالب ﷺ، زوَّج فاطمة عليًّا وهو ابن عمّه وزوَّج ابنته فكان نسبا وصهرًا[2].

فانظر إلى هذه الظلمات الحالكة، والأكاذيب التي يعلو بعضها بعضًا، وحسبك لتشعر برداءة هذا الكذب أن تعلم أن السورتين (الفرقان والرحمن) مكيتان، ولم يكن علي ﷺ قد تزوج من فاطمة ﷺ، فكيف يولد لهما ولد، وهل كان يحتج النبي ﷺ على وحدانية الله ورحمانيته أمام قريش بمثل هذا؟ وهذا التأويل المكذوب فرح به المطهر الحلي المتعصب الشيعي فنقله في كتابه منهاج

(١) تفسير الثعلبي (١٨٢/٩).

(٢) تفسير الثعلبي (١٤٢/٧).

الكرامة[١]، وفرح به المتعصبون الغلاة وأصحاب الأهواء السياسية، ولكن بعض الإثنا عشرية تبرأوا من هذا التفسير، ومنهم محمد جواد مَغنية في تفسيره (الكاشف) في تفسير سورة (الرحمن)، فقال:

"نسب إلى الشيعه الإمامية أنهم يعتقدون بأن المراد بالبحرين علي وفاطمة، وبالبرزخ محمد ﷺ، وباللؤلو والمرجان الحسن والحسين. وأنا بوصفي الشيعي الإمامي أنفي هذه العقيده عن الشيعه الإماميه على وجه الجزم والإطلاق، وأنهم يحرمون تفسير كتاب الله تفسيرًا باطنيًا، وإذا وجد فيهم من يقول بذلك فإنه لا يعبر إلا عن رأيه الخاص".

وفي المقابل فمن تأويل اللعب ما أورده إسماعيل حقي الإستانبولي الحنفي (ت ١١٢٧هـ) في تفسيره روح البيان في تفسير سورة الحاقة عند قوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧] حيث قال: "قال بعض العلماء: الأربعة اللاحقة إشارة إلى الأئمة الأربعة الذين هم أبو حنيفة والشافعي ومالك وأحمد؛ لأنهم اليوم حملة الشرع، فإذا كان يوم القيامة انقلب الشرع العرش فيكونون من حملته حُكمًا"، فانظر لهذا اللعب الرديء، والرجم بالغيب[٢].

ومن اللعب: تأويل طغاة (الليبراليين) -الذين اتخذوا دينهم لهوًا ولعبًا في هذه الأيام- الأحكام الشرعية الثابتة بأنها مجرد أحكامٍ تاريخية لا حاجة للعمل بها في واقعنا، وهذه من طوام القراءات الحداثية المعاصرة كالتاريخانية وأخواتها، وكثيرًا ما تجد هؤلاء يتشدقون بالحرية، وعندما يتمكنون تجدهم أتعس الناس في عسفهم وظلمهم وإرهابهم الفكري والمادي.

معنى أخص للتأويل:

مما أشار إليه العلامة الآلوسي رحمه الله، أن التأويل كذلك اجتهاد يفتح الله له قلب عبدٍ في فهم آية فقال: "إن كان المراد الفرق بينهما بحسب العرف اليوم؛ إذ قد تعورف من غير نكير: أن التأويل إشارة قدسية، ومعارف سبحانية، تنكشف من سُجُف -ستائر- العبارات للسالكين، وتنهل من سحب الغيب على قلوب العارفين. والتفسير غير ذلك" وهو يقصد بذلك أن التأويل: ظهور معنى من خلال الاجتهاد، فيفتح الله لعبدٍ من عباده في فهم آيةٍ من الآيات باجتهاده.

ثم قال: "وإن كان المراد الفرق بينهما بحسب ما يدل عليه اللفظ مطابقة، فلا أظنك في مريةٍ من رد هذه الأقوال، أو بوجه ما فلا أراك ترضى إلا أن في كل كشف إرجاعًا، وفي كل إرجاع كشفًا،

(١) ينظر: منهاج الكرامة في معرفة الإمامة، الحسن بن يوسف المطهر، المعروف بالحلي، تحقيق: عبد الرحيم مبارك (ص: ١٣٩).

(٢) ينظر: روح البيان (١٠/١٣٩).

فافهم"[١] يعني أن التفسير هو الكشف، والتأويل هو الإرجاع، وهما متقاربان، وواضح أن التأويل هنا اكتسب معنى مقاربًا من التفسير الإشاري الذي يكثر في تفاسير الصوفية، بل إن شئت قلت: هو هو، ولا ريب أن الكلام في قبول هذا النوع ورده يختلف كثيرًا عما سقناه آنفًا من صنيع الشيعة في تلاعبهم بالنص القرآني وتأويله.

(١) روح المعاني (١/ ٥).

زيادة إيضاح في بيان دلالات الألفاظ:

ما مراتب دلالات الألفاظ المتعلقة بالبيان القرآني؟

الله ﷻ قرر في القرآن الكريم أنه مبينٌ أي بلفظه ومعناه، فيتصور بعض الناس أن ذلك يعني أن كل الناس يفهمونه بمرتبة واحدة، وهذا جهل عظيمٌ، فإن اللفظة الواحدة في اللغة العربية، ومثلها التركيب اللغوي يتفاوت الناس في إدراك معانيه، ولذا لا بد لنا من بيان مجمل لأقسام دلالات الألفاظ، فقد نظر اللغويون والمفسرون والفقهاء والأصوليون إلى ألفاظ النصوص القرآنية (والنبوية كذلك)، وتأملوا في عدة مراتب تتعلق بالبيان القرآني:

المرتبة الأولى: قراءة اللفظة القرآنية كما أراد الله ﷻ، ومثل ذلك التركيب للكلمات القرآنية، فأنت تقرأ ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ [الفيل: ٢]، ولا تقرأها "ألف لام ميم يجعل".

المرتبة الثانية: معرفة معنى المفردة القرآنية، فكلمة ﴿ألم﴾ في الآية السابقة في سورة الفيل سؤالٌ مقترن بالنفي، وجوابه: بلى، ومثله معرفة معنى تركيب المفردات (الجملة).

المرتبة الثالثة: أن يحاول معرفة الدلالات القريبة والبعيدة للفظة القرآنية الواحدة، وللتركيب القرآني حال وجود أكثر من دلالة.

فلا بد من معرفة المعاني المتعددة للفظة القرآنية، وللتركيب القرآني، وما مدى قرب هذه المعاني وبعدها من ألفاظها، فهل هي متساوية في القرب، أم أحدها والآخر بعيد؟ وذلك مثل قول الله ﷻ ﴿قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٥١]؛ إذ تعني: القناص، والأسد، والنبل، فلا بد من تحليل الموقف هاهنا للنظر في مدى قرب هذه المعاني من اللفظة والسياق.

واللفظة القرآنية قد يظهر معناها للسامع والقارئ بمجرد سماعها أو قراءتها، وقد يكون لها مجموعة معانٍ انبثقت من نصٍّ واحد أو لفظة واحدة.

قرآن يتلىٰ لإنسانية ترقىٰ

ما أقسام دلالات الألفاظ؟

أقسام دلالات الألفاظ:

تنقسم دلالات الألفاظ القرآنية عند الجمهور إلى قسمين: (منطوق، مفهوم)

أولاً: المنطوق: وهو ما دل عليه اللفظ بمنطوقه، وهو قسمان:

١) صريح: وهو ثلاثة أنواع (الحقيقة الوضعية والحقيقة الشرعية والحقيقة العرفية).

٢) غير صريح: وينقسم إلى ثلاثة أقسام:

أ) دلالة الاقتضاء: وهي دلالة اللفظ على محذوف لا يستقيم الكلام بدونه، ويسمى (المقتضى).

ب) دلالة الإيماء والتنبيه: وهي أن يُقرن الحكم بوصفٍ لو لم يكن ذلك الوصف هو العلة لكان الكلام معيبًا، كقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨].

ج) دلالة الإشارة: وهي دلالة اللفظ على معنى غير مقصود أصالة بل تبعًا، كأخذهم أقل مدة للحمل من آيتي: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤].

ثانيًا: المفهوم: وهو ما دل عليه اللفظ لا في محل النطق، كتحريم الضرب للوالدين، وينقسم المفهوم إلى قسمين: مفهوم الموافقة، ومفهوم المخالفة.

دلالات الألفاظ حسب الظهور والخفاء:

ما أقسام دلالات الألفاظ من حيث الظهور والخفاء؟

قرآن يتلىٰ لإنسانية ترقىٰ

في مدى ظهور تلك المعاني من اللفظة أو من التركيب قسَّم علماؤنا الخطاب القرآني إلى قسمين:

القسم الأول: واضح الدلالة، وهو ثلاثة أنواع عند الجمهور:

المرتبة العليا: النص: وهو ما لا يحتمل إلا معنى واحدًا، أو ما دل على معناه دلالة قطعية، كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٦].

المرتبة الثانية: الظاهر:

وهو ما احتمل معنيين أو أكثر، لكنه راجحٌ في واحدٍ منها بصورةٍ بينة، ومن أهم القواعد التفسيرية: الأصل حمل الكلام على معناه الظاهر، وسيأتي مزيد لهذه القاعدة المهمة.

ومثال ذلك: قوله –تعالى جَدُّه–: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]؛ ما المراد من كلمة ﴿الذكر﴾ ها هنا؟

فزعم بعض الطاعنين في القرآن أن المراد بالذكر هاهنا: التوراة، واستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨].

فنجيبه، ونقول له: كلمة ﴿الذكر﴾ هنا في سورة الحجر تدخل ضمن قسم (الظاهر) من دلالات اللفظ، ولا تدخل ضمن (النص)، فيمكن أن يراد بالذكر: التوراة، ويمكن القرآن، ويمكن أن يراد أن يذكر المرء ربه في قلبه، ويمكن أن يراد أن يذكر المرء ربه بلسانه، ولكن المعنى المقصود في هذه الآية: القرآن المجيد؛ لأنه ظاهرٌ بدلالة السياق الواضحة، إذ تجد ربك عزَّ جاره يقول: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ١] ثم قال بعد ذلك: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦]، فصار كالنص في أن المراد بالآية التاسعة من سورة "الحِجْر": القرآن المجيد.

المرتبة الثالثة: المؤول، ويقابل الظاهر، هو اللفظ المحمول على الاحتمال المرجوح، وهو الذي تمت الإشارة إلى أقسامه الثلاثة.

القسم الثاني: غير واضح الدلالة:

وهو نوعان عند الجمهور[1]:

الأول: المجمل: وهو اللفظ الذي لا يُفهم المراد منه بنفسه، فيحتمل معنيين فأكثر لا مزية لأحدها على الآخر: كقوله تعالى: ﴿أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحُۚ﴾ [البقرة: ٢٣٧] فإنه متردد بين الولي والزوجة، وكقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍۚ﴾ [البقرة:٢٢٨]؛ فإنه يحتمل الأطهار والحِيَض.

الثاني: المتشابه: وهو اللفظ الذي لا يُفهَم المراد منه بنفس صيغته، واستأثر الله تعالى بعلمه، مثل تفاصيل الأمور الغيبية.

---

(١) أما علماء الحنفية فقسموا اللفظ إلى واضح الدلالة وخفي الدلالة، وقسموا واضح الدلالة أربعة أقسام رتبوها من الأدنى وضوحًا إلى الأعلى على النحو الآتي: ١. الظاهر، ٢. النص، ٣. المفسر، ٤. المحكم.

وقسموا خفي الدلالة أربعة أقسام رتبوها من الأقل خفاء إلى الأكثر على النحو الآتي: ١. الخفي، ٢. المشكل، ٣. المجمل، ٤. المتشابه. يراجع مثلاً: أصول الفقه الذي لا يسع جهله (ص:٣٩٠).

بصائر المعرفة القرآنية
قرآن يتلىٰ لإنسانية ترقىٰ

الأساس العاشر: مراتب التفسير:

ما المراتب العامة للتفسير؟

يمكن تقسيم المراتب العامة للتفسير إلى ثلاث مراتب كالآتي:

المرتبة الأولى: أن يكون التفسير تفسير وسيلة (آلة):

وهو الذي يتكلم فيه المفسرون على حلِّ الألفاظ والجمل، والنِّكات البلاغية، وكذلك ينقلون ما ورد من روايات متعلقة بهذا الموضع، ويذكرون في هذا التفسير الحكم الفقهي المحض المستنبط بصورةٍ مباشرة، وهذا النوع مطلوبٌ طلبًا واجبًا؛ إذ هو بوابة النوع اللاحق.

المرتبة الثانية: أن يكون التفسير تحقيقًا للمعنى:

ويتم ذلك بفهم حقائق الألفاظ المفردة، والتراكيب ذات الألفاظ المتعددة التي أُودِعها القرآن، بحيث يحقق المفسر ذلك من استعمالات أهل اللغة، غير مكتف بقول فلان، وفهم فلان[١]، فيحقق المفسِّرُ المرادَ من الآية عند ضرورة الترجيح أو جواز الجمع، ويعتضد بقواعد التفسير المختلفة، ويحاول أن يصل بالتوفيق الإلهي إلى الجمع بين قاعدة السياق الموضعي والسياق التاريخي، ويجمع أيضًا بين المواضع المختلفة في القرآن الكريم لمحاولة استخلاص المعنى المقصود، وينظر في عموم اللفظ وخصوصه.

المرتبة الثالثة: أن يكون التفسير تفسير الغاية، ويمكن أن يسمى التفسير المقاصدي:

وهو المقصود من المرتبتين السابقتين، فهو تفسير الهداية، بأن يبين وجه الهدايات الجزئية والكلية في الآية، ويُظهِرَ المقاصدَ والبصائرَ التي تبني الحياة الإنسانية، سواء انبثقت عن الآية أم عن بيئتها القرآنية، ويُضَمِّنَ ذلك ما يُشرِبُ القلبَ عظمةَ الله تعالى وتنزيهه، ويصرفُ النفس عن الشرّ ويجذبها إلى الخير.

في أي المواضع أشير في القرآن الكريم إلى مراتب التفسير الثلاثة؟

ذكر الله –جل مجده– **تفسيرَ الوسيلة** فقال: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣].

وأشار إلى المرتبة الوسيطة في قوله: ﴿فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء ٧٨] مع قوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [النساء: ٨٢].

وذكر تفسير الغاية فقال –تعالى جده–: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧]، أي: متعظ خائف[٢]، فهل من متذكر بهذا القرآن الذي قد يَسَّر الله حفظه ومعناه؟، وقال محمد بن كعب القرظي: فهل من منزجر عن المعاصي؟[٣].

ففي سورة الفرقان ذَكَر الله –تعالى جده– التفسيرَ وفي سورة القمر ذكر الغاية من التفسير، وهي الذكر والتذكير.وبذلك يستبين ما جاء في البيان الإلهي الخاتم المهيمن من اللمسات الإعجازية التربوية والتزكوية الفردية والجماعية التي تربط العالم بالنور الإلهي «على وجهٍ يجتذب الأرواح، ويفتح

(١) انظر: تفسير القاسمي (محاسن التأويل) (١/ ٢٠٥)، ويظهر أن السيد رشيد رضا نقل هذا الكلام عنه في أول المنار دون عزو.

(٢) تفسير القرطبي (١٧/ ١٣٣).

(٣) تفسير ابن كثير / دار طيبة (٧/ ٤٧٨).

القلوب، ويدفع النفوس إلى الاهتداء بهدى الله»[١]، ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

كيف يمكن لنا أن نصل إلى تحقيق هذه المراتب الثلاث؟

لا يمكن لنا أن نصل إلى ذلك إلا من خلال الأول دون إغراق أو تفريط...فالأول موصلٌ للثاني وخادمٌ له... والمعيب أن يُغرِق المفسر في المرتبة الأولى حتى ينسى ما بعدها، أو أن يقفز إلى المرتبة الأخيرة مهملاً الأولى متلاعبًا بها.

وهنا تعجب من بعض المفسرين -رحمهم الله- إذ يستفرغون الوسع في علم الآلة عند الكلام عن تفسير آية محددة، ثم لا تجد الحظ نفسه في تفسير الغاية، وخذ مثالاً لذلك قوله تعالى ﴿إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤]لقد أتعبوا أنفسهم -رحمهم الله- في بيان جواز هذا التعبير ﴿فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ فقالوا: أيْ: مُنْقادِينَ، وهو خَبَرٌ عَنِ الأعْناقِ، وقَدِ اكْتَسَبَتِ التَّذْكِيرَ وصِفَةَ العُقَلاءِ مِنَ المضافِ إلَيْهِ، فَأُخْبِرَ عَنْها لِذَلِكَ بِجَمْعِ مَن يَعْقِلُ[٢].

ثم حاولوا أن يستشهدوا على ذلك بالشواهد المختلفة، حتى إذا انتهيت من مبحث تفسير الآلة هنا لتصل إلى الهدايات المنيرة، والبصائر المعجزة تجدهم تركوها.. فأي المرتبتين كان أولى أن يجتهد المرء في بيانها أو إعطائها حقها من تبيانه وبرهانه؟

في المقابل نجد بعض المفسرين يهيم وراء تفسير الغاية هيامًا محبوبًا مؤثرًا حتى لو خرج عما يسميه المؤصلون للتفسير (منهج علم التفسير)، فها هو الشوكاني ﵀ على سبيل المثال إذا وقف متأثرًا عند تفسير آيةٍ أردفها بكلامٍ يفيد بيانَ وجه الهداية فيها، ومن ذلك أنه بعد تفسير قوله تعالى ذكره: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النحل: ١٨] قال:

"ربَّنا: هذه نواصينا بيدك، خاضعةٌ لعظيم نعمك، معترفةٌ بالعجز عن بادية الشكر لشيءٍ منها، لا نحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، ولا نطيق التعبير بالشكر لك: فتجاوز عنا،

(١) مناهل العرفان (٢/ ٦).

(٢) ينظر: روح المعاني (٥٩/١٩).

واغفر لنا، وأسبل ذيول سترك على عوراتنا، فإنك إلا تفعل ذلك نهلك بمجرد التقصير في شكر نعمك، فكيف بما قد فَرَطَ منا من التساهل في الائتمار بأوامرك، والانتهاء عن مناهيك"(١).

ولتجدنَّ ثروة إيمانية زاخرة في هذا الباب إن أنت راجعت ما يكثر من ترديده الرازي وغيره من المفسرين –رحمهم الله– عند تأثرهم بالآيات، وفي ذلك أثنى السيد رشيد رضا ﷺ في مجلة المنار عدد صفر١٣٢٧هـ على منهج الشيخ عبد الحميد الفراهي في تفسيره فقال: "وقد ألقينا على بعض هذه الرسائل لمحة من النظر، فإذا أسلوب جديد من التفسير، يشترك مع طريقنا في القصد إلى المعاني من حيث هي هدايةٌ إلهية دون المباحث الفنية العربية"(٢).

ملحوظة: سمى الزرقاني ﷺ تفسير الوسيلة تفسيرًا جافًا(٣)، والتعبير بالجفاف قد يفهم منه أن يمكن لنا أن ننبذ هذا التفسير أو أو نتركه، وهو ما لا يقول به الزرقاني ﷺ ولا غيره من أئمة العلم رحمهم الله تعالى بل المراد بذلك: أن من يكتفي بالمرتبة الأولى فهو كمن اكتفى بالخطوة الأولى من فهم المعنى فقط، ولم يصل إلى تنقيح المعنى وتحقيقه، ولم يصل إلى الهدايات المترتبة على ذلك، وهي التي تسهم في أن يتحقق مريد التفسير في الوصول إلى مرتبة المتقين.

(١) فتح القدير للشوكاني (٣/ ٢٢٠).

(٢) تفسير نظام القرآن وتفسير الفرقان بالفرقان: سورة البقرة، المقدمة، (ص:٤).

(٣) ينظر: مناهل العرفان (٦/٢).

أسئلة تقويمية:

س١: ما تعريف (التفسير) لغة واصطلاحًا؟

س٢: ما موضوع علم التفسير؟

س٣: عرف القرآن الكريم لغة واصطلاحًا.

س٤: ما الفرق بين التواتر القرآني والتواتر القرائي والتواتر الحديثي؟

س٥: ما حكم تعلم علم التفسير؟

س٦: قسم ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا التفسير إلى أربعة أقسام، اذكرها، واذكر مثالًا لكل قسم.

س٧: ما غاية علم التفسير؟

س٨: ما مراتب هدايات القرآن الكريم؟

س٩: عدد صور تفسير القرآن في عهد النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم. وعزز ذلك بذكر مثال لكل صورة.

س١٠: ما المصطلحات التي برزت لتشير إلى علم التفسير في القرون الأولى؟

س١١: اذكر المزايا التي تدل على شرف علم التفسير.

س١٢: ما الجهات الثلاث التي ذكرها الراغب الأصبهاني رحمه الله في شرف علم التفسير؟

س١٣: اذكر بعض الأمثلة التي تدل على اهتمام السلف بعلم التفسير.

س١٤: إذا كان القرآن نزل بلسان عربي مبين، فلماذا نحتاج إلى التفسير إذن؟

س١٥: ما أنواع التفسير باعتبار محتوى التفسير ومضمونه؟

س١٦: ما أنواع التفسير باعتبار الأسلوب؟

س١٧: ما الهدف من التفسير الموضوعي؟

س١٨: ما أبرز التفاسير التي تعنى بالتفسير الموضوعي أو بجانب من جوانبه؟

س١٩: ما أنواع التفسير باعتبار مصدر التفسير؟

س٢٠: عرف التأويل لغة واصطلاحًا.

س٢١: ما خلاصة الفرق بين التفسير والتأويل، والنسبة بينهما؟

س٢٢: ما معنى التأويل عند المتأخرين؟ واذكر مثالًا على ذلك.

س٢٣: اذكر أنواع التأويل عند المتأخرين. واذكر مثالًا على كل نوع.

س٢٤: ما مراتب دلالات الألفاظ المتعلقة بالبيان القرآني؟

س٢٥: ما أقسام دلالات الألفاظ عند الجمهور؟

س٢٦: ما أقسام دلالات الألفاظ من حيث الظهور والخفاء؟

س٢٧: ما المراتب العامة للتفسير؟

س٢٨: ما رأيك بتسمية الزرقاني ﷺ لتفسير الوسيلة بالتفسير الجاف؟

الفصل الثاني: أسس علم أصول التفسير

الأساس الأول: تعريف علم (أصول التفسير):

ما تعريف علم (أصول التفسير)؟

لغة: الأصول جمع أصل، وهو ما يُبنى عليه غيره، أو هو قاعدة البنيان.

وأما اصطلاحًا: فإذا كان تعريف (أصول الفقه): هو العلم بالقواعد التي يتوصل بها إلى الفقه[١] **فإن علم أصول التفسير هو**: العلم بالمبادئ التي يُتوصل بها إلى التفسير، وتبنى عليها جزئيات التفسير، ويُعرف بها فهم القرآن، ومناهج المفسرين[٢].

بصائر المعرفة القرآنية
قرآن يتلى لإنسانية ترقى

(١) التعريفات ص٤٥.

(٢) فررت من بدء التعريف بكلمة "القواعد" لئلا يتعقب بأن القواعد جزء من أصول التفسير، فهذا التعقب في غير محله؛ لأن القواعد التي ينصون عليها في تعريف أصول الفقه يعنون بها الماهية اللغوية، وكذلك في تعريف أصول التفسير، والقواعد التي يذكرونها باعتبارها قسمًا من أصول الفقه أو أصول التفسير يعنون بها ما خصه علماء الفن بهذا الاسم، ولكنني لاتقاء اللبس آثرت هذا التعريف حتى لا يرد الإشكال المذكور مع أنه لا محل له.

الأساس الثاني: أهمية علم أصول التفسير:

كيف تقنع غيرك بأهمية علم أصول التفسير؟

الجواب: لعلم أصول التفسير أهمية خاصة تظهر فيما يأتي:

أولاً: تظهر أهميته من خلال معرفة غايته، فغايته أن تعرف الكيفية التي بها تفهم معاني النَظْمِ القرآني الكريم، وذلك يعني أننا فهمنا مراد الله ﷻ من كلماته، وهذا يعبر بنا إلى سعادتي الدنيا والآخرة.

ثانيًا: حصول القدرةِ والمَلَكةِ في العقل البشري لفهم معاني القرآن الكريم، واستخراجِ أحكامه وحِكَمِه على وجه الصحة والدقة العلمية، لذا قالوا: من حُرِمَ الأصول حُرِمَ الوصول، وقال العلامة ابن

سعدي: "ومعلوم أن الأصول والقواعد للعلوم بمنزلة الأساس للبنيان، والأصول للأشجار، لا ثبات لها إلا بها، والأصول تبنى عليها الفروع، والفروع تَثْبُت وتتقوى بالأصول، وبالقواعد والأصول يثبت العلم ويَقْوى"(١).

ويمكنك أن تزيد هذا الكلام وضوحًا بأن تقول: لولا الأصول لما وجدت فروع، والذي يتكلم في الفروع دون أن يعرف الأصول مشوش مرتبك كمن يحاول أن يبني الدور الثاني دون وجود أساسه من قواعد البنيان ومن الدور الأول.، ولذا قال أبو القاسم عبيد الله بن عمر بن أحمد ﷺ: «إن من حق البحث والنظر الإضراب عن الكلام في فروع لم تحكم أصولها، والتماس ثمرة لم تغرس شجرها، وطلب نتيجة لم تعرف مقدماتها »(٢).

والمَلَكة: سجية تقذف في العقل والقلب بسبب كثرة المذاكرة والملازمة، والمدارسة للعلماء الحذاق، فيكون أقل أحوالها ألا يستمرئ المتكلم الباطلَ في فهمٍ في فن معين، وأن يظهر له مايتيح التعرف إلى المعاني المتعلقة به، يقول الأصمعي ﷺ: "سمعت أعرابيًّا يقول: إذا ثبتت الأصول في القلوب نطقت الألسن بالفروع"(٣).

وبذا تكون ثمرة معرفة أصول التفسير: أن يعرف كيف يفسر القرآن الكريم على الوجه الأمثل الذي تعبدنا الله ﷻ به، وليس على الوجه الذي تهواه نفس المتحدث، وعندما تتكون الملكة الأولية يتمكن حينها من إيقاف نفسه من الوقوع في الخطأ، كما يتمكن من الشعور بأخطاء المحرفين القدماء والمعاصرين.

ثالثًا: إيجاد النظرة العامة المتوازنة لتفسير النصوص مما يترتب عليه العدل في حياة الناس:

كما جاء عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «... وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ..»(٤)؛ ولذا قال ابن تيمية ﷺ: «لابد أن يكون مع الإنسان أصولٌ كليةٌ تُرَدُّ

(١) طريق الوصول (ص: ٩).

(٢) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر (٢/ ٤٨٨).

(٣) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر (٢/ ٤٨٨).

(٤) أبو داود (٤٨٤٣)، وحسن سنده الحافظان العراقي، وابن حجر. فيض القدير (٢/٥٢٩).

إليها الجزئيات؛ ليتكلم بعلمٍ وعدلٍ، ثم يعرف الجزئيات كيف وقعت، وإلا فيبقى في كذبٍ وجهلٍ في الجزئيات، وجهلٍ وظلمٍ في الكليات، فيتولد فسادٌ عظيم»(١).

ويُتصور العلم مع الظلم بأن يكون عند المرء تفسيرُ الوسيلة، لكنه ينوء أن يحمل معه تفسير الغاية أو يطبقه في حياته، أو أن يكون مقصرًا أصلًا في تحصيل تفسير الوسيلة وإدراكه.

وعدم وجود الأصول الكلية يفضي إلى تأويل الكتاب على غير تأويله الذي أراده الله ﷻ أي (التأويل البعيد (الفاسد) أو (اللعب)، فيقع فيما ذكره النبي ﷺ في حديث عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ﷺ قَالَ: «إِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْكِتَابَ وَاللَّبَنَ»، قَالَ قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا بَالُ الْكِتَابِ؟ قَالَ: «يَتَعَلَّمُهُ الْمُنَافِقُونَ ثُمَّ يُجَادِلُونَ بِهِ الَّذِينَ آمَنُوا» فَقِيلَ: وَمَا بَالُ اللَّبَنِ؟ قَالَ: «أُنَاسٌ يُحِبُّونَ اللَّبَنَ فَيَخْرُجُونَ مِنْ الْجَمَاعَاتِ وَيَتْرُكُونَ الْجُمُعَاتِ»، وفي رواية: «يَتَعَلَّمُونَ الْقُرْآنَ فَيَتَأَوَّلُونَهُ عَلَى غَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ»(٢).

رابعًا: ليستطيع طالب العلم حفظ العلم المتعلق بالأصول بأبسط طريق وأقرب منال كما قال الإمام الزركشي ﷺ: "فإن ضبط الأمور المنتشرة المتعددة في القوانين المتحدة هو أوعى لحفظها، وأدعى لضبطها... والحكيم إذا أراد التعليم لا بد له أن يجمع بين بيانين: إجمالي تتشوف إليه النفس، وتفصيلي تسكن إليه، ولقد بلغني عن الشيخ قطب الدين السنباطي ﷺ أنه كان يقول: الفقه معرفة النظائر"(٣)، ومما روي عن ابن عباس ﷺ أنه قال: "العلم أكثر من أن يحصى، فخذوا أرواحه، ودعوا ظروفه"(٤).

خامسًا: لتستبين القوانين العامة في معرفة تفسير القرآن الكريم، كما قال الزركشي ﷺ: "ومعلوم أن تفسيره يكون بعضُه من قبيل بسطِ الألفاظِ الوجيزة وكشفِ معانيها، وبعضُه من قبيل ترجيح بعض الاحتمالات على بعض... ولهذا لا يُستغنى عن قانونٍ عامٍّ يُعَوَّلُ في تفسيره عليه...:

بين أقداحهم حديثٌ قصيرٌ هو سحرٌ، وما سواه كلامُ

(١) مجموع الفتاوى (١٩/ ٢٠٣).

(٢) أحمد (١٧٣٥٦)، والرواية الأخرى عند أحمد (١٧٤٥١)، وحسن الأرناؤوط إسنادهما، وفي مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٣ / ٤١٧): رواه أحمد وفيه ابن لهيعة وهو لين، وبقية رجاله ثقات، وصححه الألباني في الصحيحة برقم (٢٧٧٨).

(٣) المنثور في القواعد (١/٦٥).

(٤) بهجة المجالس وأنس المجالس، لابن عبد البر (ص: ١).

وفي هذا تتفاوت الأذهان، وتتسابق في النظر إليه مسابقةَ الرِّهان، فمِنْ سابقٍ بفهمِه، وراشِقٍ كبد الرمية بسهمه، وآخر رمى فأشوى، وخبط في النظر خبط عشوا"(١).

(١) البرهان في علوم القرآن (١/ ١٥).

الأساس الثالث: نشأة علم أصول التفسير (وهنا نعرف كيف كان النبي ﷺ والصحابة رضي الله عنهم يفهمون القرآن الكريم):

كيف نشأ علم أصول التفسير؟ وهل كان الصحابة رضي الله عنهم يعرفونه كما هو مدون اليوم؟

جواب ذلك في الآتي:

أولاً: نزل القرآن الكريم على نبي أمي، وقوم أميين في غالبهم، ولكنهم امتازوا بالبيان في ألسنتهم حدًّا أدهش غير العرب، كما في إعجاب الشاعر الألماني (جوته) بقصيدة ابن أخت تأبط شرًا[1]، وبهذه الإبانة الفائقة للغتهم نزل القرآن، كما قال تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ [الزخرف: ١-

(١) هي قصيدة أنشأها ابن أخت تأبط شرًا، وأعجب جوته بها عندما ترجمت إلى الألمانية، فاستفز يحيى حقي محمود شاكر بمقال يتعجب فيه: كيف يعجب شاعر ألمانيا العظيم بشعر لبدوي، فأنشأ شاكر كتابه "نمط صعب، ونمط مخيف" للرد على هذا التصاغر الثقافي، ومطلع القصيدة:

إن بالشعب الذي دون سلع لقتيـــلًا دمه ما يـــطل

انظر: كتاب نمط صعب ونمط مخيف، لمحمود شاكر (ص: ١).

٢] فجعله مبينًا لشدة وضوحه واصفًا إياه باسم الفاعل، وحقه أن يوصف باسم المفعول، ولكنه عدل عن ذلك إلى اسم الفاعل؛ لشدة ظهور الإبانة فيه حتى كأنه يتكلم بذاته، ولذلك كان العرب والعجم يسلمون إن قرأوه إن لم يحل بينه وبينهم حاجز العناد والتعصب.

ثانيًا: حفظ النبي ﷺ ألفاظ القرآن حتى يبلغها أمته، فهو معصوم في حفظها وتبليغها كما سمعها من جبريل عليه السلام، ثم تكون العصمة عن نسيان الألفاظ للأمة في مجموعهم بعد تبليغهم، كما فهم ﷺ معاني القرآن حيث ضمن الله له ذلك بقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧، ١٨] (١)، ونقل للعالم كل ألفاظ القرآن، وهيئة أدائه (الترتيل)، وكذلك نقل لهم معانيه قولاً وفعلاً وتقريرًا كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

وبمجرد نزوله فهمه المخاطبون به ابتداء من القرشيين مسلمهم وكافرهم، ثم ضبط الصحابة رضي الله عنهم فهمه جملة "أما فهمه تفصيلاً، ومعرفة دقائق باطنه، بحيث لا يغيب عنهم شاردة ولا واردة، فهذا غير ميسور لهم بمجرد معرفتهم للغة القرآن، بل لابد لهم من البحث والنظر والرجوع إلى النبي ﷺ فيما يشكل عليهم فهمه"(٢).

ثالثًا: يستخدم العرب في كلامهم أساليبَهم المعتادة مثل: الحقيقة والمجاز، والتصريح والكناية، والإيجاز والإطناب، والبديع اللغوي بأصنافه، والتشبيه، وغيرها من علوم البيان والمعاني والبديع، وهي تفتقر إلى علمي النحو والصرف، والقرآن الكريم جاء على حسب هذه الأساليب العربية إلا أنه فتنهم باستعمالها استعمالاً يفوق بلاغتهم من حيث البناء اللفظي، ومن حيث التصوير المعنوي، فلم يجد عندها معارضوه شيئًا يعارضونه به إلا أن وصفوه وصفًا محسوبًا له لا عليه، وهو قولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [المدثر: ٢٤].

رابعًا: نشأ علم التفسير القولي عند احتياج الناس لمعرفة معنى قرآني، ونشأ معه علم أصول التفسير؛ إذ استبانت منذ العصر الأول مصادرُ التفسير الأساسية، (ومنها: القرآن الكريم، والنبي ﷺ، واللغة العربية)، وفي ذلك قال الله -تعالى ذكره-: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤]، فلما قال: ﴿لِتُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ احتمل

(١) راجع تفصيل ذلك في كتاب: تلقي النبي ﷺ ألفاظ القرآن الكريم (ص: ١١٣).

(٢) انظر: التفسير والمفسرون (١/ ٣٨).

ذلك أن يبين ﷺ لهم اللفظ، لكنه –تعالى مجده– لما أتبع ذلك قولَه: ﴿ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ فهمنا أنه أراد المعنى أيضًا، فإما أن يبينه باللفظ القرآني مباشرة، وإما أن يبين معنى اللفظ القرآني عند الحاجة لبيانه بلفظه الشريف ﷺ، أو فعله الممجد المنيف ﷺ، وقال النبي ﷺ: «ألا سألوا إذ لم يعلموا؛ فإنما شفاء العِيِّ السؤال»(١)، وقد قال هذا زجرًا لمن أفتى في التيمم ما ليس له به علم؛ إما لأنه اجترأ ففسر آية التيمم على غير وجهها، ولم يضعها في موضعها، وإما لأمرٍ آخر، فعلمهم ﷺ أن من مصادر التفسير الاجتهادَ من العالِمين المتمكنين في الفهم، ويفصل الله ذلك تفصيلاً يقطع قول كل خطيبٍ، فيقول –تعالى جدُّه: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣]، ولفت النبي ﷺ نظرهم إلى أن أول مصادر التفسير: القرآن ذاته، كما في بيان معنى الظلم الوارد في آية الأمن في سورة الأنعام...وهذا النص جمع بين التفسير والإشارة إلى أصوله، وبالأخص إحضار السياق عن ترجيح معنى على آخر.

خامسًا: في أواخر عهد بني أمية وأول عهد العباسيين كانت الخطوات الأولى للتصنيف والتدوين، حيث دُوِّنت السنة النبوية، وهي تضم بين جنباتها تفسيرَ القرآن الكريم، والأصولَ التطبيقية لتفسيره؛ إذ كانوا ربما ذكروا معنى الآية مبينين سبيل اختيارهم لهذا المعنى، فذلك أشبه بالإشارة إلى الأصول التي تبنى عليها الفروع.

سادسًا: ثم ما لبثوا حتى اتجه العلماء إلى فصل العلوم بعضها عن بعض، وبدأوا مرحلة التخصص لكل فن من فنون العلوم، فأصبح للحديث علماؤه ومصنفاته، وللتفسير علماؤه ومصنفاته، إلا أن أهل العلم لم يفردوا أصول التفسير بالتأليف تحت هذا المصطلح: (أصول التفسير) كما أفردوا أصول الفقه، ومصطلح الحديث، وسبب ذلك: أن العلومَ جميعَها تتعلق بأصول التفسير، فالحديث يعد أصلاً من أصول التفسير قوليًّا وعمليًّا، والفقه نشأن عن فهم القرآن، فقواعد استنباطه من القرآن تعد أصولاً للتفسير، فهي الأساس في فهم التفسير، ولعل هذا برهان من زعم أن التفسير نهاية العلوم، وكلامه يستحق التفصيل، ولأجل ذلك أصررت على أن رسالة الشافعي لم تكن إلا أصولًا للتفسير لكن الفقهاء والأصوليين ادعوها خالصة لهم في زعمهم لتعلق كثير من أمثلتها بعلم الفقه الاصطلاحي، ثم حاول كثرة من أهل العلم تدوين أصول التفسير من خلال كتب علوم القرآن،

(١) أبو داود (٣٣٦)، واللفظ له، ابن ماجه (٥٧٢)، وقد حسنه عدد من أهل العلم منهم الألباني.

ومنهم من جعل علم الأصول في مقدمات تفسيره، دون النص على مصطلح أصول للتفسير، وعدم إفراد هذا العلم بهذا المصطلح دعا العلامة سليمان بن عبد القوي الطوفي (ت٧١٦هـ)رحمه الله لأن يقول: "إنه لم يزل يتلجلج في صدري إشكال علم التفسير وما أطبق عليه أصحاب التفاسير، ولم أجد أحدًا منهم كشفه في ما ألفه، ولا نحاه في ما نحاه، فتقاضتني النفس الطالبة للتحقيق الناكبة عن جمر الطريق لوضع قانون يعول عليه ويصار في هذا الفن إليه"(١).

من أول من صنف في أصول التفسير وأصول الفقه؟ وما العلاقة بينهما؟

سابعًا: يمكن أن يُشار هنا إلى الإمام محمَّدِ بن إدريس الشافعيّ (ت٢٠٤هـ) رحمه الله باعتباره أولَ من كتب في أصول التفسير بمعناه المعاصر؛ إذ وضع كتاب (الرسالة) في الأصل في معاني القرآن الكريم، فهي أولُ إخراجٍ علميٍّ في العلمين: أصول التفسير وأصول الفقه، حيث تحدث فيها عن الكتاب والسنة، وعن مراتب البيان، كما بين فيها الناسخ والمنسوخ، والعموم والخصوص، وهذه كلها علومٌ مشتركة بين أصول الفقه وأصول التفسير، ولم يسبق الشافعيَ أحدٌ إلى ذلك كما قال الإمام الجويني رحمه الله في شرح الرسالة(٢)، ويجوز لنا أن ندعي أن الشافعي ألف هذا الكتاب في أصول التفسير، وإنما دخل علم أصول الفقه تبعًا؛ إذ من المعلوم أن الشافعي ألف ذاك الكتاب بناء على طلب إمام الدنيا عبد الرحمن بن مهدي رحمه الله عندما سأله أن يؤلف له كتابًا في معاني القرآن(٣).

ما الأشكال التي ظهر فيها علم أصول التفسير في أول الأمر؟

قرآن يتلى لإنسانية ترقى

(١) الإكسير في قواعد التفسير (ص: ٢٧).

(٢) البحر المحيط للزركشي (١/ ٧).

(٣) لي بحث عن: العبقرية والنبوغ عند الإمام الشافعي في التفسير. نشر في مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية/ جامعة قطر.

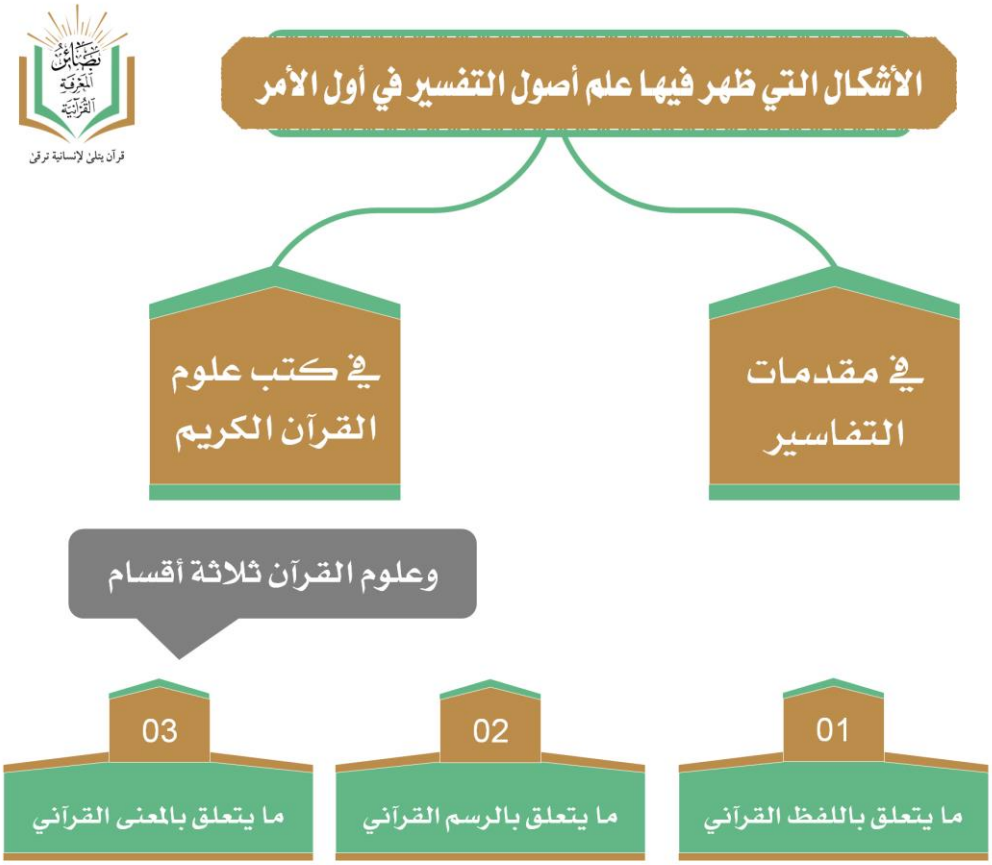

الأساس والتنوير في أصول التفسير أ.د. عبد السلام مقبل المجيدي

ثامنًا: ظهر علمُ أصول التفسير في الآتي:

المورد الأول: في مقدمات التفاسير التي تشكل مادةً عظيمة رائعة في هذا الفن كمقدمة الطبري رحمه الله.

المورد الثاني: في كتب علوم القرآن الكريم حيث شكلت المادة الأساسية لأصول التفسير، إذ كان فهم القرآن المجيد أحد ثلاثة أقسام تكونت منها كتب علوم القرآن، **فعلوم القرآن ثلاثة أقسام:**

القسم الأول: ما يتعلق باللفظ القرآني: كمباحث التحمل القرآني، وجمع القرآن، ونحوها.

القسم الثاني: ما يتعلق بالرسم القرآني.

القسم الثالث: ما يتعلق بالمعنى القرآني: ما تعلق بالتفسير، كأسباب النزول (السياق التاريخي للقرآن الكريم)، وعلم الاتصال القرآني (السياق الموضعي)، ومباحث الدلالات، ويدخل فيه بصورةٍ ما: نزول القرآن، كالمكي والمدني.

ما العلاقة بين أصول التفسير وعلوم القرآن؟

العلاقة بين أصول التفسير وعلوم القرآن علاقة تداخلٍ، فقد كان علم أصول التفسير جزءًا عظيمًا من علوم القرآن، فكان المؤلفون في علوم القرآن يمزجون بين علوم التفسير وأصوله وعلوم القرآن، ولأجل هذا الامتزاج ألف السيوطي كتابين في علوم القرآن:

الأول منهما سماه: (التَّحْبِيرُ فِي عُلُومِ التَّفْسِيرِ)، فضمنه أنواع علوم القرآن التي ذكرها جلال الدين الْبُلْقِينِيُّ (ت٨٢٤ هـ) في كتابه: (مواقع العلوم من مواقع النجوم) مَعَ زِيَادَةٍ مِثْلِهَا وفَوَائِدَ سَمَحَتِ الْقَرِيحَةُ بِنَقْلِهَا[1].

الثاني: ثم لما رأى كتاب البرهان للزركشي ألف كتابه الكبير: (الإتقان في علوم القرآن)، وجعله مُقَدِّمَةً لتفسيره (مجمع الْبَحْرَيْنِ وَمَطْلَعِ الْبَدْرَيْنِ الْجَامِعِ لِتَحْرِيرِ الرِّوَايَةِ وَتَقْرِيرِ الدِّرَايَةِ)، وهذا يدل على أن أصول التفسير كانت جزءًا من علوم القرآن، ثم انفصل هذا الفن عن علوم القرآن، واستقل بالتأليف.

الأساس الرابع: أهم المؤلفات في أصول التفسير:

اذكر بعض المؤلفات في أصول التفسير؟

يمكن تصنيف المؤلفات في هذا العلم الشريف إلى ست مجموعات:

المجموعة الأولى: كتب مصرحة بأنها في أصول التفسير: ومنها:

١) (الإكسير في قواعد علم التفسير): لسليمان بن عبد القوي الحنبلي المعروف بالطوفي (ت: ٧١٦هـ)، وقال في سبب تأليفه لهذا الكتاب: "فإنه لم يزلْ يتلجلجُ في صدري إشكال علمِ التفسيرِ، وما أطبق عليه أصحاب التفاسير، ولم أر أحدًا منهم كشفه فيما ألَّفه، ولا نحاه فيما نحاه، فتقاضتني النفس الطالبة للتحقيقِ، الناكبةُ عن جمرِ الطريقِ؛ لوضع قانونٍ يعوَّلُ عليه، ويصار في هذا الفنِّ إليه، فوضعت لذلك صدرَ هذا الكتاب، مُرْدِفًا له بقواعدَ نافعةٍ في علم الكتابِ، وسميتُه: "الإكسير في

(١) الإتقان في علوم القرآن (١٨/١).

قواعد علم التفسير"، فمن ألَّفَ على هذا الوضعِ تفسيرًا ، صار في هذا العلمِ أوَّلاً وإن كان أخيرًا ، ولم أضع هذا القانون لمن يجمدُ عند الأقوالِ ، ويصمدُ لكلِّ من أطلق لسانَه وقال ، بل وضعته لمن لا يغترُّ بالمحالِ ، وعرف الجالَ بالحقِّ ، لا الحقَّ بالرجالِ"(١).

٢) مقدمة في أصول التفسير لتقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (ت٧٢٨هـ): وهذا المؤلف يتضمن كلامًا نفيسًا جدًّا كما وصفه الإمام السيوطي في الإتقان(٢)على صغر حجم هذه المقدمة، وضمن أغلبها ابن كثير في مقدمة تفسيره، وشرحها عددٌ من المعاصرين.وهذا الاسم (مقدمة في أصول التفسير) ليس من وضع ابن تيمية بل هو من وضع مفتي الحنابلة بدمشق جميل الشطي الذي طبع الكتاب سنة (١٣٥٥هـ)، أما ابن تيمية فقد أشار في بداية المقدمة إلى أنه كتب هذه المقدمة بناء على طلب بعض إخوانه لتتضمن قواعد كلية تعين على فهم القرآن ومعرفة تفسيره، فأشار بذلك إلى أنه وضع كلمات هذه المقدمة لتتضمن: أهم أصول التفسير، ومناهج المفسرين.

٣) أشار ابن القيم (٧٥١هـ) إلى أنه كتب في أصول التفسير، وذلك عند قوله في كتابه "جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد ﷺ خير الأنام": "والرسول ﷺ يفسر اللفظة بلازمها وجزء معناها كتفسير الريب بالشك، والشك جزء مسمى الريب... ونظائر ذلك كثيرة قد ذكرناها في أصول التفسير"(٣)...فهل له رسالة مستقلة في أصول التفسير؟ يحتمل ولكنها لم تصل إلينا، ويحتمل أن مراده أنه قد ذكر ذلك في كتبه التي أشارت إلى بعض قواعد التفسير وأصوله مثل كتابه: الفوائد المشوق إلى علوم القرآن(٤).

قرآن يتلى لإنسانية ترقى

(١) الإكسير في قواعد التفسير (ص: ٢٧)، والعجيب أن دار الأوزاعي نشرته باسم الإكسير في علم التفسير، رغم أن المؤلف صرح في المقدمة أنه في قواعد التفسير.

(٢) انظر: الإتقان(٢/ ٤٧٢).

(٣) جلاء الأفهام (ص: ١٥٩).

(٤) قال شيخنا الشيخ المحقق عبد الله يوسف الجديع في هذا الموضع: "جاء ذكر كتاب " الفوائد المشوقة لعلوم القرآن" منسوبًا لابن القيم ﷺ، وهذا الكتاب في التحقيق لا تصح نسبته لابن القيم ﷺ ، وقد كنت لاحظت منذ سنين طويلة تزيد عن ربع قرن أن أسلوب هذا الكتاب يجافي منطق ابن القيم ومفرداته وطبيعة إنشائه، فوقع في نفسي منه. ولم أجد من عزاه لابن القيم ﷺ ، ووجدت وقتها من العلامات على كونه ليس له ما ضمنه من القول بالمجاز، ومعلوم بوضوح تام إنكار ابن القيم للمجاز، بل بالغ حتى نعته بالطاغوت، في كتاب " الصواعق المرسلة"، ثم وجدت من بعد من وافق ما كنت صرت إليه من عدم صحة نسبة هذا الكتاب لابن القيم ﷺ، كالعلامة المحقق بكر أبو زيد، وعنايته بابن القيم متميزة منذ عهد بعيد. وكذا رأيت مثل ذلك لغيره أيضا...". ينظر كتاب ابن القيم الجوزية حياته آثاره موارده، لبكر أبو زيد (ص: ٢٩١. ٢٩٢). وذكر المحقق الدكتور زكريا سعيد الأدلة على أن هذا الكتاب لا تصح نسبته إلى ابن القيم ﷺ، مؤكدًا نسبته إلى ابن النقيب أبي عبد الله محمد بن سليمان بن الحسن جمال الدين البلخي المقدسي الحنفي (ت ٦٩٨ هـ).

٤) (الفوز الكبير في أصول التفسير): لولي الله أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي (ت١١٧٦هـ).

٥) العون الكبير شرح الفوز الكبير لسعيد أحمد بن محمد يوسف البالنبوري: وهو شرح الكتاب السابق.

٦) (الإكسير في أصول التفسير): لمحمد صديق خان بن السيد حسن الحسيني القنوجي الهندي المحدث أمير مملكة بهوبال (ت ١٣٠٧هـ).

٧) (أصول التفسير وقواعده): لخالد العك.

٨) (بحوث في أصول التفسير) للصباغ.

٩) (بحوث في أصول التفسير ومناهجه) للدكتور فهد بن عبد الرحمن الرومي.

١٠) (التيسير في أصول التفسير): للدكتور عبد الحق القاضي.

١١) (فصول في أصول التفسير): للدكتور مساعد الطيار، ثم أصدر: (المحرر في أصول التفسير).

المجموعة الثانية: كتب في قواعد التفسير:

يكاد أن يكون مصطلح قواعد التفسير مرادفًا لمصطلح أصول التفسير، ومن الكتب التي أُلِّفت بهذا الاسم:

١) (التيسير في قواعد علم التفسير): لمحمد بن سليمان الكافيجي (ت ٨٧٩هـ).

٢) (القواعد الحِسان لتفسير القرآن): للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي (ت١٣٧٦هـ).

٣) (قواعد التفسير جمعًا ودراسة): للدكتور خالد بن عثمان السبت، وهو كتاب قيم يعيبه طول النقول دون المناقشة والنقد لبعض الآراء التي ينبغي فيها مثل ذلك.

٤) (قواعد الترجيح عند المفسرين): للشيخ خالد الحربي، ويؤخذ عليه عدم التعمق في بعض العلوم التي تشكل مصدرًا لهذه القواعد كعلم القراءات مما يؤدي إلى استنتاج قواعد محل نظر.

المجموعة الثالثة: كتب تتكلم عن أصول التفسير أو تشير إلى شيء منها، وعناوينها عامة، ومنها:

١) كتاب (جواهر القرآن): لأبي حامد الغزالي (ت٥٠٥هـ): وهو من أوائل المحاولات لتأسيس كتاب مستقل في أصول التفسير، وذكر عنه تلميذه ابن العربي أنه كتب في قانون التأويل[١].

(١) قال الشيخ المحقق عبد الله يوسف الجديع في هذا الموضع: " جاء ذكر" قانون التأويل" للغزالي نقلًا عن ابن العربي في جملة ما ألف في (قواعد التفسير)، والواقع أن هذا الكتاب رسالة صغيرة الحجم للغزالي مطبوعة يتحدث فيها عن التأويل بمصطلحه الكلامي الأصولي، وليست لها علاقة ظاهرة بقواعد التفسير...."

٢) كتاب (قانون التأويل): للقاضي أبي بكر بن العربي، والكتاب محاولة تأسيسية لبيان كيفية فهم القرآن الكريم وإن كان ينحو نحو النقاش العقدي.

٣) (الإرشاد إلى طريق المعرفة لصحيح التفسير)، وهو جزء من كتاب إيثار الحق على الخلق لمحمد بن إبراهيم الوزير (ت٨٤٠هـ).

٤) كتاب (التفسير والمفسرون) للدكتور محمد حسين الذهبي (ت١٩٧٧م)، وهو كتابٌ جامع بين منهجين: منهج أصول التفسير، ومنهج مناهج المفسرين...وهو كتابٌ قيمٌ.

٥) (النبأ العظيم)، و(مدخل إلى القرآن الكريم): للدكتور محمد عبد الله دراز(ت١٩٥٨م)، والكتابان من الكتب النفيسة التي تشكل مدخلاً مهمًا لمفسر القرآن الكريم.

٦) (المدخل إلى الدراسات القرآنية): للشيخ أبي الحسن الندوي (ت١٩٩٩م)، وهو من الكتب النفيسة التي تضمنت فوائد مختلفة في فكرها وأسلوبها.

٧) (تطور تفسير القرآن (قراءة جديدة): للدكتور محسن عبد الحميد، وهو كتاب قيم إلا أنه في مناهج المفسرين مع تضمنه أصولاً في التفسير، ويتميز بحس نقدي عالٍ، وفوائد مهمة، وإن كان رجوعه للمصادر الأصلية في أسس العلوم يعتريه الضعف.

المجموعة الرابعة: كتب علوم القرآن:

فكتب علوم القرآن، بل معظم أصول التفسير مستخرجة منها... ومن أشهرها:

١) (الرغيب في علم القرآن (لعله الترغيب): لأبي عبد الله محمد بن عمر الواقدي (ت ٢٠٧هـ).

٢) (عجائب علوم القرآن): لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري (ت ٣٢٨ هـ).

٣) (المختزن في علوم القرآن): لأبي الحسن الأشعري (ت ٣٣٤ هـ).

٤) (الاستغناء في علوم القرآن): لأبي بكر محمد بن علي بن أحمد الأُدْفُوي (ت ٣٨٨هـ).

٥) (البرهان في علوم القرآن): لأبي الحسن علي بن إبراهيم بن سعيد الحوفي (ت ٤٣٠هـ)، وهو كتاب في التفسير توسع فيه بذكر علوم القرآن المتعلقة بلفظ الآيات ومعناها.

٦) (البيان الجامع لعلوم القرآن): لأبي داود سليمان بن نجاح المقرئ (ت٤٩٦هـ).

٧) (فنون الأفنان في عجائب علوم القرآن)، و(المجتبى في علوم القرآن): وكلاهما لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي (ت ٥٩٧هـ).

٨) (البرهان في علوم القرآن): لأبي عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت٧٩٤هـ).

٩) (الإتقان في علوم القرآن): لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ).

١٠) الكتاب الموسوعة: (الزيادة والإحسان في علوم القرآن): لمحمد بن أحمد بن عقيلة المكي(ت١١٥٠هـ).

المجموعة الخامسة: مقدمات المفسرين في كتب التفسير:

فقد أشار المحققون من المفسرين في مقدمات تفاسيرهم إلى أصول تفسيرية مثل:

١) مقدمة تفسير (جامع البيان عن تأويل القرآن): لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري(ت٣١٠هـ).

٢) مقدمة (النكت والعيون): لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي (ت٤٥٠هـ).

٣) مقدمة (المحرر الوجيز): لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي(ت ٥٤٦هـ).

٤) مقدمة (الجامع لأحكام القرآن): لشمس الدين محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١هـ).

٥) مقدمة (التسهيل): لأبي بكر أحمد بن أبي القاسم المعروف بابن جزي الكلبي الأندلسي (ت ٧٤١هـ).

٦) مقدمة (تفسير القرآن العظيم): لعماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير القرسي الدمشقي (ت٧٧٤هـ).

٧) مقدمة تفسير (روح المعاني): لأبي الثناء شهاب الدين محمود بن عبد الله الآلوسي (ت١٢٧٠هـ).

٨) مقدمة تفسير جمال الدين محمد بن محمد سعيد القاسمي (ت ١٣٣٢هـ).

٩) مقدمة (التحرير والتنوير): لمحمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت١٣٩٣هـ)، وهي من أكثر المقدمات تحقيقًا وتنقيحًا في أصول التفسير.

١٠)مقدمة (أضواء البيان): لمحمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي (ت١٣٩٣هـ).

المجموعة السادسة: كتب التفسير ذاتها:

فنجد قواعدَ التفسير وأصولَه مبثوثةً في كتب المفسرين كالتفاسير المشار إليها سابقًا، ويضاف إليها من مهمات مؤلفات التفسير: تفسير (فتح القدير) لقاضي القضاة محمد بن علي الشوكاني(ت١٢٥٠هـ).

الأساس الخامس: استمداد علم أصول التفسير وقواعدِه:

من أين نستمد أصول التفسير؟

معنى اســـتمداد العلم أي توقفه على معلوماتٍ ســـابق وجودها على وجود ذلك العلم عند مدونيه، لتكون عونًا لهم على إتقان فهم ذلك العلم وتدوينه[1]، وفي نظري فإن ما يستمد منه التفسير صالح لأن يستمد منه علم أصول التفسير، وأهم مصادر علم التفسير:

(١) التحرير والتنوير(١/ ١٦)، ومثل ذلك علم الكلام فقد جعلوه مما يستمد منه التفسير. انظر: التحرير والتنوير(١/٢٦)، أصول التفسير وقواعده(ص: ٤٣)، وعند الكاتب فالعكس صحيح، إنما نحتاج إلى تفصيلات الآيات الكونية؛ لزيادة بيان إجمال القرآن فيها، مما يدخل في علم الإيمان الذي سمي علم الكلام.

المصدر الأول: القرآن الكريم: بالاستقراء، أو بالنظر إلى النص على أساس البحث عن قواعد كلية.

المصدر الثاني: السنة النبوية: بالاستقراء، أو بالنظر إلى النص على أساس البحث عن قواعد كلية.

المصدر الثالث: كلام أكابر المفسرين من الصحابة ﷺ وغيرهم إذا نصوا على قواعد كلية، أو باستقراء أقوالهم للوقوف على القواعد التي اعتمدوها.

المصدر الرابع: أصول الفقه: إذ حقيقتها أصول عامة للفهم الكلي، وما الفقه بمعنى علم الفروع إلا ثمرة من ثمار تفسير القرآن، فأصول الفقه تصلح أن تكون أصولاً للتفسير؛ لأن فروع الفقه بعض منه، ولذا لما نظم الشيخ محمد الحسن بن أحمد الخديم نظمه عن أصول كلية للفقه سمى نظمه: إزالة الريب والأوهام عما يخل بالأفهام، وقال فيه:

حمدًا لمن رجوته يقيني ... عنْ كلِّ ما يُخِلُّ باليقينِ

من دركه في العجزِ عنْ إدراكِه ... واختُصَّ بالملكِ بلا إشراكِه[1]

لماذا كانت أصول الفقه من مصادر أصول التفسير؟

وإنما كان أصول الفقه من مصادر أصول التفسير لوجهين:

١) أن علم أصول الفقه فيه الكثير من طرق استعمال كلام العرب وفهم موارد اللغة.

٢) أن علم الأصول يضبط قواعد الاستنباط ويفصح عنها، وهو من ثَمَّ آلة للمفسر، بل يمكن أن يقال: أصول الفقه هي أصول الفهم، فهي داخلة في جميع العلوم.

هنا تشعر بالنظر الثاقب للرازي ﷺ، حيث قال مبينًا أثر علم الأصول في تنمية الملكة التفسيرية: "وهَذِهِ الدَّقائِقُ لا يُمْكِنُ فَهْمُها مِنَ القُرْآنِ إلّا بَعْدَ إتْقانِ عِلْمِ الأُصُولِ، وأقُولُ: يَبْعُدُ أنْ يَصِيرَ غَيْرُ عِلْمِ الأُصُولِ العَقْلِيِّ قاهِرًا في تَفْسِيرِ كَلامِ اللَّهِ تَعالى"[2].

وهل الفقه مما يستمد منه علم التفسير؟

ليس الفقه مادة لعلم التفسير كما ذهب إلى ذلك السيوطي[3]؛ إذ الفقه يستمد من الكتاب فهو فرع التفسير على الحقيقة.

---

(١) طبع في مقدمة سلم المطالع (ص: ١٥).

(٢) تفسير الرازي (٢١/ ٤٥)، انظر: التحرير والتنوير(١/ ٢٤).

(٣) انظر: التحرير والتنوير (١/ ٢٤).

المصـدر الخامس: اللغة والبيان والنحو والتصـريف: إذ "علوم اللسـان هادية للصـواب في الكتاب والسنة"(١).

إذا كانت هذه العلوم تمثل مدد علم التفسير كما تمثل مدد علم أصول التفسير فهل ينافي ذلك كون التفسير رأسَ العلوم الإسلامية؟:

الجواب: لا! إذ معنى كونه رأسَ العلوم الإسـلامية أنه أصـل لعلوم الإسـلام على وجه الإجمال، فأما استمداده من بعض العلوم الإسلامية فذلك استمداد يقصد منه تفصيل التفسير على وجه أتم من الإجمال، وهو أصل لما استمد منه باختلاف الاعتبار(٢).

الأساس السادس: لماذا لم توضع أصول للتفسير في عهد الصحابة ﷺ؟

أولاً: لأن الصـــحابة رضـــي الله عنهم لم يحتاجوا لـذلك؛ فهم العرب الـذين نزل القرآن بلغتهم، وبسليقتهم العربية استغنوا عن وضع قواعدَ محددةٍ للتفسير، فالأصول العامة للتفسير كانت حاضرة في أذهانهم كمصادر التفسير، وأساليب اللغة العربية، ولذا وصف الله تعالى آياته بأنها بينات أي أنها مبينة بذاتها في لفظها وفي معناها وفي الدلالة على مصدريتها وهو الله ﷻ.

ثانيًا: لوجود سـنة رسـول الله ﷺ وهي تبين عن الله تعالى ما أراده من كلماته: ويدل على هذين السـببين قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ [آل عمران:١٠١] أي "أن الكفر بعيد منكم وحاشاكم منه؛ فإن آيات الله تنـزل على رسوله ليلاً ونهارًا وهو يتلوها عليكم ويبلغها إليكم"(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد:٨]، كما يمكنك أن تشـعر باكتفاء الصـحابة رضـي الله عنهم بالجهد النبوي في بيان القرآن الكريم من خلال حديث صـالح بن جبير أنه قال: قدم علينا أبو جمعة الأنصـاري صـاحب رسـول الله ﷺ بيت المقدس ليصـلي فيه، ومعنا رجاء بن حيوة يومئذ، فلما انصـرف خرجنا معه لنشـيعه، فلما أردنا الانصـراف قال: إن لكم عليَّ جائزة وحقًّا أن أحدثكم بحديث سمعته من رسول الله ﷺ فقلنا : هات يرحمك الله فقال : كنا

(١) الاعتصام (١/٢٦).
(٢) التحرير والتنوير (١/ ٢٥).
(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٥١٤).

مع رسول الله ﷺ معنا معاذ بن جبل رضي الله عنه عاشر عشرة فقلنا: يا رسول الله هل من قوم أعظم منا أجرًا آمنا بك واتبعناك؟ قال: «ما يمنعكم من ذلك ورسول الله ﷺ بين أظهركم يأتيكم الوحي من السماء؟! بلى! قوم يأتيهم كتاب بين لوحين فيؤمنون به، ويعملون بما فيه... أولئك أعظم منكم أجرًا، أولئك أعظم منكم أجرًا، أولئك أعظم منكم أجرًا»(١).

ثالثًا: لأنهم عرفوا أسباب النزول وطبيعة الحال التي نزل فيها الوحي...وهنا يرد حديث ابن عباس رضي الله عنهما في اختلاف الأمة مع أن كتابها واحد.

هل معنى قولنا نزل القرآن عربيًّا أن كل الناس يفهمونه على قدر متساوٍ؟

ج: لا! بل يفهم العامة المعاني المجملة فيه، أما الدقائق والتفاصيل فقد بين الله تعالى ذكره أنها لمن يستنبطه من أولي الذكر، كما في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت:٤٩]، ويفسر ابن كثير رحمه الله معنى هذه الآية، فيقول: "أي هذا القرآن آيات بينة واضحة في الدلالة على الحق أمرًا ونهيًا وخبرًا يحفظه العلماء. يسره الله عليهم حفظًا وتلاوة وتفسيرًا"(٢)، وقرر ابن خلدون رحمه الله ذلك في قوله:

"وأما التفسير: فاعلم أن القرآن نزل بلغة العرب، وعلى أساليب بلاغتهم، فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه"(٣).

فهل يعني ابن خلدون رحمه الله أنهم كانوا على قدرٍ متساوٍ في فهم القرآن الكريم؟.

الجواب: لعل ابن خلدون لا يريد ذلك، بل يكون معنى تقريره: "أن كل واحد من الصحابة رضي الله عنهم كان عندما يقرأ القرآن يفهم ظاهره العربي ألفاظًا وتركيبًا، أما ما حوله من العلوم والمعارف وقضايا الحلال والحرام، وأسباب النزول، وما وراء الألفاظ والمعاني من الاستنباطات الدقيقة، فهذا لم يكن يعرفه إلا العلماء من الصحابة رضي الله عنهم الذين اشتهروا بالتفسير والفتيا ومعرفة السنة الشريفة"(٤)، ومما يدل على أن

(١) أحمد (١٧٠٧)، وصححه الأرناؤوط واللفظ رواه الطبراني في المعجم الكبير (٣٥٤٠)، وقال الألباني:" وهذا إسناد جيد؛ على ضعف في عبد الله بن صالح كاتب الليث، إلا أن الحافظ قد استظهر من أقوال الأئمة فيه: أن ما يجيء عنه من رواية أهل الحذق كيحيى بن معين، والبخاري، وأبي زرعة، وأبي حاتم؛ فهو من صحيح حديثه؛ فإن هذا من حديث البخاري عنه وقد توبع". سلسلة الأحاديث الصحيحة (٧/ ٩٠٧)

(٢) تفسير ابن كثير(٣ /٥٥٢).

(٣) مقدمة ابن خلدون (١/٥٥١).

(٤) تطور تفسير القرآن (ص:٢٣)، وهذا بخلاف ما ذهب إليه الذهبي في التفسير والمفسرون (١/ ٣٠) من أن ابن خلدون مال في كلامه هذا إلى معرفة الصحابة للتفاصيل والدقائق...فكلامه واضح في أنهم فهموا الفهم العام، فلا يوجد ما يقتضي نقد كلامه أو الاستدرك عليه، والدليل على ذلك سماع المسلمين والكفار له دون أن يقول أحد منهم إن الكلام الذي ذكرته مستغلق.

ابن خلدون ﷺ لم يقصد الإطلاق في كلامه السابق قوله: "فكان النبي ﷺ يبين المجمل، و يميز الناسخ من المنسوخ، ويعرفه أصحابه، فعرفوه، وعرفوا سبب نزول الآيات، ومقتضى الحال منها منقولا عنه"(١)، فقد كان الصحابة ﷺ يفهمون القرآن إجمالاً، أما عند التفصيل والتدقيق فيتفاوتون، ويتخصص منهم أولو الذكر، كما في قوله تعالى:﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل:٤٣-٤٤) **وأبرز ما يخبرك ذلك حقيقة تفاوت الصحابة ﷺ في فهم القرآن.**

قاعدة: يتفاوت الناس –ومنهم الصحابة رضي الله عنهم– في فهم القرآن الكريم:

فـ"قد يظهر لبعضهم ما لم يظهر لبعض آخر منهم في تفسير القرآن الكريم، وهذا يرجع إلى تفاوتهم في القوة العقلية، وتفاوتهم في معرفة ما أحاط بالقرآن من ظروف وملابسات، وأكثر من هذا: أنهم كانوا لا يتساوون في معرفة المعاني التي وضعت لها المفردات، فمن مفردات القرآن ما خفي معناه على بعض الصحابة رضي الله عنهم، ولا ضير في هذا، فإن اللغة لا يحيط بها إلا معصوم، ولم يدع أحد أن كل فرد من أمة يعرف جميع ألفاظ لغتها"(٢).

هلَّا ذكرت بعض الأمثلة التي تدل على تفاوت الصحابة رضي الله عنهم في فهم القرآن؟

من أمثلة ذلك:

أولاً: يتميز بعضهم في فهم أمرٍ، ولا يدركه آخرون كما في حديث عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ ﷺ المتقدم حول الخيط الأبيض والخيط الأسود (٣).

ثانيًا: ومن ذلك ما جاء عن أنس ﷺ: "أن عمر بن الخطاب ﷺ قرأ على المنبر: ﴿وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا﴾ [عبس:٣١] فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأب؟. ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا لهو التكلف يا عمر"(٤)، هذا مع أن سيدنا عمر ﷺ هو الوارد فيه حديث فضلِة اللبن التي شربها على

(١) مقدمة ابن خلدون (١/٥٥١).

(٢) التفسير والمفسرون (١/ ٣٩).

(٣) البخاري (١٩١٦)، مسلم (٢٥٠٠).

(٤) المستدرك (٣٨٩٧)، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، سنن سعيد بن منصور (٤٣)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٥٤).

إثر النبي ﷺ، وأولوه بالعلم، ولا أظنه يعني أنه لا يعرف الأبَّ، بل يعني وجوه الارتباط ودقائق الاستنباط، كما ورد في قصته مع ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في تفسير سورة النصر.

ثالثًا: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: إن الشُّرَّاب كانوا يضربون على عهد رسول الله ﷺ بالأيدي والنعال والعِصِي حتى توفي رسول الله ﷺ، وكانوا في خلافة أبي بكر رضي الله عنه أكثر منهم في عهد رسول الله ﷺ فقال أبو بكر رضي الله عنه: لو فرضنا لهم حدًّا فتوخى نحوا مما كانوا يضربون في عهد رسول الله ﷺ فكان أبو بكر رضي الله عنه يجلدهم أربعين حتى توفي، ثم قام من بعده عمر، فجلدهم كذلك أربعين، حتى أتى برجل من المهاجرين الأولين وقد كان شرب، فأمر به أن يجلد فقال: لم تجلدني؟ بيني وبينك كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ؟ فقال عمر رضي الله عنه: في أي كتاب الله تجد أني لا أجلدك؟ فقال: إن الله تعالى يقول في كتابه ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾ [المائدة:٩٣] فأنا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ثم اتقوا وآمنوا، ثم اتقوا وأحسنوا: شهدت مع رسول الله ﷺ بدرًا والحديبية والخندق والمشاهد فقال عمر رضي الله عنه: ألا تردون عليه ما يقول؟ فقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إن هذه الآيات أنزلت عذرًا للماضين، وحجة على الباقين؛ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ يقول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [المائدة:٩٠]، ثم قرأ حتى أنفذ الآية الأخرى ﴿وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ﴾ فإن الله عَزَّ وَجَلَّ قد نهى أن يشرب الخمر فقال عمر رضي الله عنه: صدقت فماذا ترون؟ فقال علي رضي الله عنه: نرى أنه إذا شرب سكر، وإذا سكر هذى، وإذا هذى افترى، وعلى المفتري ثمانون جلدة، فأمر عمر رضي الله عنه فجلد ثمانين(١).

رابعًا: ويبين هذا التفاوت ما جاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كان عمر رضي الله عنه يدخلني مع أشياخ بدر فقال بعضهم: لم تدخل هذا الفتى معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال: إنه ممن قد علمتم. قال: فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم قال: وما رأيته دعاني يومئذ إلا ليريهم مني. فقال: ما تقولون في ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [النصر: ١، ٢] حتى ختم السورة؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا، وفتح علينا. وقال بعضهم: لا ندري، أو لم يقل بعضهم شيئًا. فقال لي: يا ابن عباس أكذلك قولك؟ قلت: لا! قال: فما تقول؟ قلت: هو

(١) المستدرك (٤/٤١٧)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه، ووافقه الذهبي، سنن البيهقي الكبرى٣/ ١٦٦.

أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ فتح مكة فذاك علامة أجلك ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾. قال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم[١].

خامسًا: ومنها المذكورة في مبحث غريب القرآن –الآتية–توضح ذلك وتبينه، والأمثلة كثيرة، غير أن مسروقًا الأجدع ؒ يوضح طبيعة تفاوت فهم الصحابة ؓ في قوله: "جالست أصحاب محمد ﷺ فوجدتهم كالإخاذ- يعني الغدير- فالإخاذ يُروي الرجل، والإخاذ يُروي الرجلين، والإخاذ يُروي العشرة، والإخاذ يُروي المائة، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم"[٢].

وصاغ ذلك الشيخ الطالب زيدان –وفقه الله تعالى-:

تفاوَتَ النـاسُ كصـحْبِهِ الأُوَلْ   في فهْمِـه، والخـيْطُ الأَسْـوَدُ مَثَـلْ

ماذا يفيدنا هذا البحث في تفسير القرآن الكريم؟

أولاً: عدم وجود معصومٍ في تفسير القرآن الكريم بعد النبي ﷺ إلا أن يكون إجماعًا.

ثانيًا: هذا يقتضي أن المسلمين يحتاج بعضهم إلى بعض في فهم القرآن الكريم وتطبيقه، وتواصيهم في ذلك بالحق، وتواصيهم بالصبر. وهذا يعني أن يكون من أهم الأولويات: تشكيل اللجان الشرعية التي تبين مراد الله ﷻ في النوازل المختلفة، فردية كانت أو جماعية، كما يعني ضرورة وجود حلقات المدارسة العامة، وكذلك إيجاد المؤسسات العلمية التي تخرج الراسخين في العلم.

قرآن يتلى لإنسانية ترقى

(١) البخاري (٤٢٩٤).

(٢) الطبقات الكبرى (٢/ ٣٤٣)، والبيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (ص: ١٦١)، وقال المحقق: إسناده صحيح، والإخاذ: مجتمع الماء شبه الغدير.

أسئلة تقويمية:

س١: ما تعريف علم أصول التفسير؟

س٢: ما أهمية علم أصول التفسير؟

س٣: اذكر أهم المراحل التي مر بها علم أصول التفسير.

س٤: مَنْ أول من صنف في أصول التفسير وأصول الفقه؟ وما العلاقة بينهما؟

س٥: ما الأشكال التي ظهر فيها علم أصول التفسير في أول الأمر؟

س٦: وضح العلاقة بين أصول التفسير وعلوم القرآن.

س٧: اذكر بعض المؤلفات في أصول التفسير.

س٨: ما أهم مصادر علم أصول التفسير؟

س٩: لماذا كانت أصول الفقه من مصادر أصول التفسير؟

س١٠: لماذا لم توضع أصول للتفسير في عهد الصحابة رضي الله عنهم؟

س١١: اذكر بعض الأمثلة التي تدل على تفاوت الصحابة رضي الله عنهم في فهم القرآن.

قرآن يتلىٰ لإنسانية ترقىٰ

الفصل الثالث: شروط المفسر وآدابه[١]

هذه جملة من الشروط والآداب التي يتوجب توفرها في المفسر:

(١) انظر: الإتقان في علوم القرآن (٤٦٧/٢)، مباحث في علوم القرآن (ص: ٣٤٣).

الأول: الالتزام بمصادر التفسير الخمسة للوصول إلى التأويل الصحيح:

أما إذا لم يلتزم المفسر بها، وخاصة تفسير القرآن بالسنة، والسيرة[١] فإن القرآن يصبح مجالاً للتأويلات الخاطئة والباطلة، ويصل الأمر إلى العبث بألفاظ القرآن؛ إذ قد سلبه عند عدم الرجوع إلى السنة أعظم بيان له، وهو البيان النبوي القولي والفعلي.

ماذا يترتيب على العبث بفهم القرآن الكريم؟

تحدث التأويلات الخاطئة الظالمة: فربما أزهق روحًا بريئة مسلمة أو غير مسلمة؛ لأنه تأول القرآن تأولاً خاطئًا، وربما استباح الشهوات، وربما أقر الكفر بسبب هذا التأول الخاطئ لكلمات القرآن؛ ولذا روى الترمذي عن جبير بن نفير عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ، فشخص ببصره إلى السماء ثم قال: «هذا أوان يختلس العلم من الناس؛ حتى لا يقدروا منه على شيء». فقال زياد بن لبيد الأنصاري رضي الله عنه: كيف يختلس العلم منا وقد قرأنا القرآن؟ فوالله لنَقرَأنه، ولنُقرِئنه نساءنا وأبناءنا. فقال: «ثكلتك أمك يا زياد! إن كنت لأعدك من فقهاء أهل المدينة! هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى، فماذا تغني عنهم؟»[٢]، وعن عقبة بن عامرٍ الجهني رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «هلاك أمتي في الكتاب واللبن» قالوا : يا رسول الله ما الكتاب، واللبن؟ قال: «يتعلمون القرآن فيتأولونه على غير ما أنزل الله ﷻ، ويحبون اللبن، فيَدعَون الجماعات والجُمَعَ ويَبْدُون»[٣].

وصاغ ذلك الشيخ الطالب زيدان –وفقه الله–:

وهـــذِهِ جُمـْلـــةُ آدابٍ لِـمَـــنْ ... أرادَ تَفْســـيرَ الْكتـــابِ وَهْـــيَ أنْ
يَلْـــتَزِمَ الْمَصـــادِرَ الخَمْســـةَ مِـــنْ ... تَفْـــسيرِهِ لأَجْـــلِ تأويـــلٍ حَسَـــنْ
وهِـــيَ أنْ يُفَـــسَّرَ الْقُـــرْآنُ بِالْـــ ... قُـــرْآنِ أوْ سُنَّـــةِ خـــاتِمِ الرُّسُـــلْ
أوْ قَـــوْلِ صَـــحْبِهِ الكِـــرامِ أَوْ بِمـــا ... لِلُغَـــةِ العُـــرْبِ انْتَمَـــى وسَـــلِما
أوِ اجْتِهـــادِ العُلَمـــاءِ الرَّاسِـــخِينْ ... (التَّـــابِعِي سُنَّـــةِ خَـــيْرِ المرْسَـــلينْ)

---

(١) السيرة من السنة، وأُفردت بالذكر تنبيهًا.

(٢) الترمذي (٢٦٥٣)، وقال: «هذا حديث حسن غريب»، وصححه الألباني.

(٣) أحمد (١٧٤٥١)، وحسنه الأرناؤوط، وأورده الألباني في الصحيحة برقم: (٢٧٧٨).

الثاني: أن يوجد عنده الحد العلمي اللازم من العلوم التي أشار إليها الإمام الداني رحمه الله في قصيدته (المنبهة) فقال[١]:

١٥- مـن مقـرئٍ منـتصبٍ إمـامِ وعـالمٍ بـالنحـو ذي تـمـام

١٦- ومـاهرٍ في العلـم بـالتـأويل وقـدوةٍ في محكـم التـنزيـل

١٧- وفي العقـود وأصـول الـدين والفقـه والحديـث ذي تمكـين

١٩- وبـاصرٍ بالنقـل والـروايـة مُشَـهَّرٍ بالفـهـم والـدرايـة

٢٠- وضـابطٍ للأحـرف المشـهورة وحـافـظٍ للطـرق المنشـورة

٢١- وصـادقِ اللهجـة غَـيرِ مـتهم لـسنن الماضـيين قبـلُ ملـتزمِ

ولا بد من بعض تفصيل لأهم العلوم التي يحتاجها المفسر:

(١) الأرجوزة المنبهة (ص: ٧٦، ٧٧).

العلم الأول: علم المفردات اللغوية: ويدخل فيه أمران: علم الغريب، وعلم التصـــريف، وينبغي للمفســـر هنا –كما يرى الأســـتاذ محمد عبده– **فهم حقائق الألفاظ المفردة التي أودعها القرآن بحيث يحقق المفسر ذلك من استعمالات أهل اللغة** غير مكتف بقول فلان وفهم فلان؛ فإن كثيرًا من الألفاظ كانت تستعمل في زمن التنـــزيل لمعان، ثم غلبت على غيرها بعد ذلك بزمن قريب أو بعيد... فعلى المحقق المدقق أن يفسر القرآن بحسب المعاني التي كانت مستعملة في عصر نزوله.

العلم الثاني: علم الصـــرف والنحو: ويؤخذ منه معرفة الأحكام التي للكلمات العربية من جهة إفرادها وتركيبها؛ فالنحو معرفة التغيير الذي طرأ على أواخر الكلم لاختلاف المعنى، بينما الصـــرف هو معرفة المعنى بناء على بنية الكلمة.

العلم الثالث: علم البيان والمعاني ومعهما البديع:

ويوضح الفرق بينها الشيخ عبد الرحمن الأخضري في الجوهر المكنون، فيقول(١):

٢٨- وجعلـــوا بلاغـــةَ الكـــلامِ طِباقَـــهُ لِمُقتضـــى المقـــامِ

٢٩- وحـــافظٌ تأديـــةَ المعـــاني عَـــنْ خَطَـــأٍ يُعْـــرَفُ بـــ"المعاني"

٣٠- ومـــا مِـــنَ التعقيـــدِ في المعـــنى يَقِـــي لَـــهُ "البيـــانُ" عِنْـــدَهُمْ قَـــدِ انْتُقِـــي

٣١- ومـــا بـــه وجـــوهُ تحســـين الكَـــلامْ تُعْـــرَفُ يُـــدْعى بـــ"البَديعِ" والسَّـــلام

فعلم المعاني يحفظ من الخطأ في تأدية المعنى، وأدخلوا فيه: مباحث مثل(٢):

٣٣- إســـناد، مُســـنَدٌ إِلَيْـــهِ مُسْـــنَدُ وَمُتَعَلَّقـــاتُ فِعـــلٍ تُـــورَدُ

٣٤- قَصْـــرٌ، وَإِنْشـــاءٌ، وَفَصْـــلٌ، وَصْـــلٌ، إيجـــازٌ، اطنـــابٌ، مُســـاواةٌ رأَوْا

وعلم البيان يحفظ من التعقيد المعنوي، ومباحثه ثلاثة قال عنها الأخضري(٣):

١٤٨- فـــنُّ البيـــانِ عِلْـــمُ مـــا بـــهِ عُـــرِفْ تأديـــة المعـــنى بِطُـــرْقٍ مختَلِـــفْ

١٤٩- وضـــوحُها، واحصـــره في ثلاثـــةِ تشـــبيهٍ، أو مجـــازٍ، أو كنايـــةِ

والبديع يحسن وجوه الكلام، وهو أنواع متعددة تبين حلاوة الكلام.

وهذه العلوم توضح لك جمال النظم القرآني، وتظهر لك أسرار تركيب الكلمات في الآيات، كما قال الزمخشـري رحمه الله: "ومن حق مفسـر كتاب الله الباهر وكلامه المعجز أن يتعاهد في مذاهبه بقاء النظم على حسنه، والبلاغة على كمالها، وما وقع به التحدي سليمًا من القادح"(٤).

(١) الجوهر المكنون في صدف الثلاثة الفنون (ص: ٢٣).

(٢) الجوهر المكنون في صدف الثلاثة الفنون (ص: ٢٤).

(٣) الجوهر المكنون في صدف الثلاثة الفنون (ص: ٣٤).

(٤) الكشاف (٣٢/١).

قال السيوطي ﵀: "وهذه العلوم الثلاثة هي علوم البلاغة، وهي من أعظم أركان المفسر؛ لأنه لا بد له من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز، وإنما هو يدرج بهذه العلوم"(١).

ولهذين العلمين (البيان والمعاني) –كما يقول الطاهر بن عاشور ﵀ –"مزيد اختصاص بعلم التفسير، لأنهما وسيلة لإظهار خصائص البلاغة القرآنية، وما تشتمل عليه الآيات من تفاصيل المعاني، وإظهار وجه الإعجاز، ولذلك كان هذان العلمان يسميان في القديم: علم دلائل الإعجاز"(٢)، بل قال فيهما الزمخشري ﵀: "علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم، فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام، والمتكلم وإن بَزَّ أهلَ الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القِرِّيَة أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ، والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه، واللغوي وإن علك اللغات بقوة لحييه لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن وهما علما البيان والمعاني"(٣).

وقد تتساءل: ما فائدة معرفة هذه العلوم الثلاثة؟

وفائدة معرفة هذه العلوم الثلاثة معرفة الأساليب القرآنية الرفيعة وذلك يحصل بممارسة الكلام البليغ ومزاولته مع التفطن لنكته ومحاسنه والوقوف على مراد المتكلم منه. نعم! إننا لا نتسامى إلى فهم مراد الله تعالى كله على وجه الكمال والتمام، ولكن يمكننا فهم ما نهتدي به بقدر الطاقة، ويحتاج في هذه إلى هذه العلوم(٤).

قال ابن أبي الحديد: "اعلم أن معرفة الفصيح والأفصح، والرشيق والأرشق من الكلام أمر لا يدرك إلا بالذوق، ولا يمكن إقامة الدلالة عليه.

وليس كل من اشتغل بالنحو واللغة والفقه يكون من أهل الذوق، وممن يصلح لانتقاد الكلام، وإنما أهل الذوق هم الذين اشتغلوا بعلم البيان، وراضوا أنفسهم بالرسائل، والخطب، والكتابة، والشعر،

---

(١) الإتقان (٤/٢١٤).

(٢) التحرير والتنوير(١/٧).

(٣) الكشاف (١/٢).

(٤) المنار (١/٢٠).

وصارت لهم بذلك دربة، وملكة تامة، فإلى هؤلاء ينبغي أن يُرجع في معرفة الكلام، وفضل بعضه على بعض"(١).

هل نضج هذا العلم واحترق؟

الجواب: لا، بل يجد المرء آفاقًا رحبة في هذا العلم يمكن تجديدها، أو بناء قواعد جديدة على القواعد الصلبة القديمة التي أُسِّست في هذا العلم، وحسبك أن ترى اللفتات البيانية البارعة التي استخرجها ابن عاشور ﵀ في تحريره وتنويره لتشعر بمقدار السعة القرآنية للمعاني غير المتناهية.

تراجع السلسلة التي قدمتها في اليوتيوب بعنوان (لماذا قال الله ﷻ؟ من أسرار ترتيب القرآن)، وانظر إلى الحلقة الأولى منها لتحبوك بمثال: لماذا قال نوح ﵇: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩]، ولم يقل: إني أخاف عذاب يوم عظيم عليكم.

العلم الرابع: علم الحديث، أي المقبول من السنة والسيرة، ويدخل في ذلك المراسيل المقبولة، والآثار الضعاف المنجبرة، والضعاف التي لا تنطوي على ما يصادم ما هو أقوى منها، ولا بد من التحقق الحديثي في مواطنه كمواطن الإشكال ونسبة الأقوال إن احتوت على ما يستغرب(٢).

فيؤخذ منه توضيح المعاني القرآنية حسب الفهم النبوي لها، وحسب تطبيقه لها في واقع أصحابه رضي الله عنهم، والواقع المحلي والعالمي الذي كان يعالجه، وبذلك نستطيع أن نعين المبهم، ونبين المجمل، ويتضح لنا فيه سبب النزول.

العلم الخامس: علم أصول الفقه: ويؤخذ منه معرفة العلاقة بين الإجمال والتبيين، وبين العموم والخصوص، وبين الإطلاق والتقييد، كما نسترشد منه دلالة الأمر والنهي وما أشبه هذا.

العلم السادس: علم الإيمان وبيناته (يسميه المتقدمون علم الكلام): ويؤخذ منه ما يتعلق بالإلهيات، والنبوات وبراهينها.

العلم السابع: علم قراءة القرآن الكريم، وقراءاته: لأنه به يعرف كيفية النطق بالقرآن، فدخل فيه علم التجويد، ويقدم لنا علم القراءات فوائد عظيمة؛ إذ قد تتغير الصورة التي ترسمها الآية باختلاف القراءة، وقد تؤدي القراءات المتواترة لتثبيت أحكام مختلفة في الآية، فلنضرب لذلك مثلاً:

---

(١) شرح نهج البلاغة (ص: ١٢٩).

(٢) وذهب بعض فضلاء المحققين إلى أن التحقيق الحديثي غير معهود في صنيع المفسرين، فيقال له: هذه دعوى عريضة، وتحتاج إلى تفصيل آخر، ولو اطلع القارئ على ما أورده الثعلبي في قوله تعالى: {فتلقى آدم} ومواضع مماثلة لوجد ما يخاف فيخ على الثعلبي أمام الله لأنه أورده.

كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، فالقراءتان المتواترتان في هذا الموضع تقدمان لنا صورتين(١):

الصورة الأولى: قراءة الأمر ﴿قَالَ ٱعْلَمْ﴾ تدل على أن الله أو الملَك بعد أن أراه تلك المعجزة الباهرة قال له: ﴿ٱعْلَمْ﴾ آمرًا، أي تيقن أو ازدد يقينًا أن الله على كل شيء قدير، وذلك بعد أن رأيت عين اليقين إحياء الله تعالى للموتى.

الصورة الثانية: تنبئنا بها قراءة (الإخبار) بالمضارع ﴿قَالَ أَعْلَمُ﴾ فإنها تدل على أن الرجل بعد أن سمع ذلك ردد تلك العبارة: أعلم أن الله على كل شيء قدير...منذهلاً مسبحًا...كما يرى اثنان منظرًا جميلاً فيقول أحدهما للآخر: قل سبحان الله...فيردد الآخر: سبحان الله مكررًا إياها... وهو وصف تصويري إعجازي بديع.

فنحتاج للقراءات من حيث هي طريق في أداء ألفاظ القرآن لا من حيث إنها شاهد لغوي فقط، كما يظهر من كلام الطاهر بن عاشور رحمه الله(٢)، فالمعاني التي قد تستفاد من اختلاف القراءات أعم من أن تكون مجرد حجة لغوية، أو استعمالاً عربيًّا.

العلم الثامن: علم أحوال البشر وأخبار الأمم أي: **علم التواريخ والأحداث والأخبار والعلوم الأخرى التي يستفاد منها في فهم القرآن الكريم**: فقد أنزل الله ﷻ هذا الكتاب، وجعله آخر الكتب، وبين فيه ما لم يبينه في غيره، وبين فيه كثيرًا من أحوال الخلق وطبائعه، وبين فيه سننه الإلهية في البشر، وقص علينا أحسن القصص عن الأمم وسيرها الموافقة لسنته فيها.. فلا بد للناظر في هذا الكتاب من النظر في أحوال البشر في أطوارهم وأدوارهم ومناشيء اختلاف أحوالهم من قوة وضعف، وعز وذل، وعلم وجهل، وإيمان وكفر، ومن العلم بأحوال العالم الكبير علويه وسفليه، ويحتاج في هذا إلى فنون كثيرة من أهمها التاريخ بأنواعه، فـ "يستعان بها على فهم ما أوجزه القرآن في سَوْقها؛ لأن القرآن إنما يذكر القصص والأخبار للموعظة والاعتبار، لا لأن يتحادث بها الناس في الأسمار...فنحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ [النحل:٩٢]، وقوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ [البروج: ٤] يتوقف على معرفة أخبارهم عند العرب"(٣)، ومثل ذلك ما ذكره الله ﷻ من

(١) قرأ حمزة والكسائي بالوصل، وإسكان الميم على الأمر، وإذا ابتدآ كسرا همزة الوصل. وقرأ الباقون بقطع الهمزة والرفع على الخبر. النشر في القراءات العشر (٢/ ٢٣١، ٢٣٢).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ١٠).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٢٣).

عادات العرب وغيرهم، كقوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ [المائدة:١٠٢].

ومن الأمثلة التي تدل على أهمية ذلك: قصة المغيرة بن شعبة رضي الله عنه عندما سئل عن قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأُخۡتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٍ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾ [مريم: ٢٨]، فقال له النصارى: إنكم تقرؤون ﴿يَـٰٓأُخۡتَ هَـٰرُونَ﴾، وموسى قبل عيسى بكذا وكذا. قال المغيرة: فلما قدمت على رسول الله ﷺ سألته عن ذلك فقال: «إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم»(١).

ما مكانة علم التاريخ والآثار في فهم القرآن الكريم واكتشاف كنوزه؟

علم التاريخ والآثار من العلوم التي حثنا الله ﷻ على معرفتها معرفة صحيحة تجريبية بأن نقف عليها بأعيننا إن استطعنا، وليس بأن نكتفي فيها بالرواية، فقال: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١]، وقال: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [النمل: ٦٩]، وقال: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَ﴾ [العنكبوت: ٢٠]، وآيات الحث على السير في الأرض كثيرة لافتة مدهشة تحثنا حثًّا على اكتشاف المخبآت في الأرض تاريخًا وآثارًا وتربةً (جغرافيا).

ما الأسس التي لا بد من اصطحابها عند السير في الأرض؟

هذا الاستكشاف المطلوب يكون لنا عوامل مساعدة تخبرنا بالإعجاز القرآني، وينبغي أن نصطحب عدة أسس هاهنا:

الأساس الأول: ينبغي ألا نغتر بما وصل إلينا من المقررات التاريخية حتى نعرضها على الوحي المعصوم، وعلى التحقيق العلمي الذي هدانا إليه القرآن والسنة؛ فالمقررات التاريخية لا تخلو من حالين:

الحال الأول: أن تكون رواية، فالرواية لا بد فيها من التمحيص عند الحاجة لإظهار الحق من الباطل، والصدق من الكذب، فبعض الناس يقيمون عقائدهم على أكاذيب مثل أكذوبة الصلب، وأكذوبة الإمام الغائب.

الحال الثاني: أن تكون آثارًا ظاهرة أو مكتشفة، فيجب عدم التسليم لكل ما يذكره المستكشفون إلا على حذر، فعلى سبيل المثال: فك دلالات الرموز الهيروغليفية ينسب في العصر الحاضر إلى

(١) مسلم (٥٦٤٩).

شامبليون، فلا ينبغي التسليم الكامل لما قرره قبل إعادة دراستها مجددًا دراسة موضوعية محايدة غير مصاحبة للأهداف الخاصة للاحتلال الغربي؛ إذ كثير من هذه المكتشفات تصحبها أطماع الغزو الخارجي، واستغلال أصحابه، وما أكثر ما يقومون بسرقة الآثار.. هذا لا يعني أننا نبقى بمعزل عن الإفادة منها، وإنما المراد أن تكون هذه الإفادة في غاية الحذر، وما زلت أعجب لأقسام التاريخ والآثار وبعض أقسام الهندسة كيف لا يربطون الطلاب في الجامعات بدراسة آثار بلدانهم مجددًا لاستكشاف المخفي، والتأكد من حقيقة المكتشف مع ما تراه من ضخامة الآثار في منطقتنا المسلمة من الربع الخالي.

لتطبيق ذلك على التفسير وجدت بعض المفسرين يزعم أن معنى قوله: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ [الفجر: ٧] أي العمد الطويلة التي توضع لنصب الخيام، وسمعت بعض المعاصرين الذين يرتبطون بأهداف العبث السياسي يؤيدون ذلك، ويزعمون أن عادًا كانوا أصحاب رعي وخيام بينما تجد هذا يخالف صريح القرآن بصورة واضحة، فالله يقول: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨]، ﴿فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾[الأحقاف: ٢٥].

الأساس الثاني: عدم الاغترار بالكمية الهائلة من المعلومات التاريخية بناء على الآثار؛ إذ ما زال هذا العلم قابلاً للاستكشاف والزيادة، ومن ثم فإن من يأتي بالمسلَّمات التي يفرضها على الآخرين لا يأتي إلا عجبًا وغرورًا، ولذا ترى العالم حذِرًا فيما يقول، فكثير من العلماء الباحثين يقولون: الذي وصل إلينا كذا وكذا، ويعنون بذلك أننا قد نكتشف شيئًا جديدًا يغاير أو يناقض ما وصل إلينا، ولا يجزم بالنتائج العلمية الأولية إلا المغرورون.

ومثل ذلك أن نتعرف إلى العلوم الكونية التي أجملها القرآن، فينبغي أن يكتشف المفسر ما تحتبئه الآيات من المعلومات المتعلقة بعلم الأجنة، وعلم الفلك، وعلم البحار، وأمثال ذلك ليستطيع إظهار الجمال البياني للآية القرآنية دون أن يغتر بما اكتشفته العلوم الكونية إلا أن يكون ما اكتشفته حقيقة واضحة، وليس مجرد فرضيات علمية.

هل يعني هذا أن المفسر لا بد أن يعرف علم الفلك وعلم الأجنة وعلم الفيزياء مثلاً حتى يستطيع تفسير القرآن الكريم؟

لا نعني هذا، فهذا لم يقله أحد، وإنما قصدنا أن يكون عند المفسر معرفة إجمالية بالمعاني التي أشار لها القرآن مما يتعلق بهذه العلوم، ثم يتوسع المتخصصون لبيان مواضع الإعجاز التي دلت عليها ألفاظ القرآن الكريم وفق مصادر التفسير لا وفق الأهواء والرغبات، وبذلك ننزه القرآن المجيد عن أن يتم العبثُ بألفاظه باسم الإعجاز البياني أو العلمي في غير مواضعهما.

العلم التاسع: العلم بوجه هداية البشر كلهم في القرآن مما يعني التعرف إلى المقاصد العامة للقرآن وللدين، فيجب على المفسر القائم بهذا الفرض الكفائي أن يعلم ما كان عليه الناس في عصر النبوة من العرب وغيرهم؛ لأن القرآن ينادي بأن الناس كلهم كانوا في شقاء وضلال، وأن النبي ﷺ بُعث به لهدايتهم وإسعادهم، وكيف يفهم المفسر ما قبَّحته الآيات من عوائدهم على وجه الحقيقة أو ما يقرب منها إذا لم يكن عارفًا بأحوالهم وما كانوا عليه.

ومن جهل هذا يظن أن الإسلام أمر عادي كما ترى بعض الذين يتربون في النظافة والنعيم يعدون التشديد في الأمر بالنظافة والسواك من قبيل اللغو؛ لأنه من ضروريات الحياة عندهم، ولو اختبروا غيرهم من طبقات الناس لعرفوا الحكمة في تلك الأوامر وتأثير تلك الآداب من أين جاء.

العلم العاشر: العلم بسيرة النبي ﷺ وأصحابه ﷺ وما كانوا عليه من علم وعمل وتصرف في الشؤون دنيويها وأخرويها[١].

وعد السيوطي ﷺ مما يحتاج إليه المفسر: علم التصريف، وعلم الاشتقاق، ويمكن إدخالهما في علم اللغة، وعد أيضًا علم الفقه، ولم يعده غيره، ولكل وجهة، وعد علمَ الموهبة أيضًا من ذلك قال: وهو علمٌ يورثه الله تعالى لمن عمِل بما علم، وإليه الإشارة بالحديث «من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم»[٢]"[٣]، وأوصل بعض العلماء العلوم التي يحتاجها المفسر إلى خمسة عشر فنًّا[٤].

---

(١) تفسير المنار (١/ ٢١) .

(٢) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٠/ ١٥)، بلفظ: «مَنْ عَمِلَ بِمَا يَعْلَمُ وَرَّثَهُ اللَّهُ مَا لَمْ يَعْلَمْ»، وضعفه، وقال الألباني " موضوع". سلسلة الأحاديث الضعيفة (٤٢٢).

(٣) الإتقان (٢/ ٤٧٧)، روح المعاني (١/ ٥).

(٤) انظر: كشف الظنون (١/ ٤٢٧)، أبجد العلوم (٢/ ١٨٤).

"قال ابن أبي الدنيا: فهذه العلوم التي هي كالآلة للمفسر لا يكون مُفَسِّرًا إلا بتحصيلها، فمن فسر بدونها كان مفسرًا بالرأي المنهي عنه، وإذا فسر مع حصولها لم يكن مفسرًا بالرأي المنهي عنه، قال: والصحابة والتابعون كان عندهم علوم العربية بالطبع لا بالاكتساب، واستفادوا العلوم الأخرى من النبي ﷺ"(١).

وهذه الشروط ضرورية: "في غير أدنى مراتب التفسير، أما الأدنى فهو جائز من غير اعتبار تلك الشروط؛ لأن الله يسره حتى للعامة"(٢).

الأدب الثالث: صحة الاعتقاد ولزوم الشريعة:

كما قال السيوطي رحمه الله: "فإن من كان مغموصًا عليه في دينه، لا يؤتمن على الدنيا، فكيف على الدين؟ ثم لا يؤتمن من الدين على الإخبار عن عالِم، فكيف يؤتمن في الإخبار عن أسرار الله تعالى؟ ولأنه لا يُؤْمَن إن كان متهمًا بالإلحاد أن يبغي الفتنة، ويَغُرَّ الناس بِلَيِّه وخداعه، كدأب الباطنية، وغلاة الرافضة، وإن كان متهمًا بهوى، لم يُؤْمَن أن يحمله هواه على ما يوافق بدعته"(٣)، وقد خلف في زماننا الفِرَقَ التي ذكرها السيوطي رحمه الله فرقٌ أسوأُ سبيلاً، وأضلُّ فعلاً وقيلاً مثل: الحشاشين الجدد الذين يريدون تغيير معاني الدين بما يوافق إجرامهم وافتراءهم في الدين كأن يلغوا معالم الإسلام باسم الديانة الإبراهيمية، ومثلهم الذين يشاقون الله ورسوله من متطرفي العلمانيين.

وقال ابن القيم رحمه الله: «لا يدرك معانيه —القرآن– ولا يفهمه إلا القلوب الطاهرة، وحرام على القلب المتلوث بنجاسة البدع والمخالفات أن ينال معانيه، وأن يفهمه كما ينبغي»(٤).

وبين معاذ بن جبل رضي الله عنه كيف تُغَيِّرُ الفتنُ النواحي الفكرية عند حاملي القرآن، أو عند من يفترون الكذب ممن ينتسبون إلى أمة القرآن، فيروي عنه يزيد بن عَميرة الزبيدي قوله: «إِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ فِتَنًا يَكْثُرُ فِيهَا الْمَالُ، وَيُفْتَحُ فِيهَا الْقُرْآنُ حَتَّى يَأْخُذَهُ الْمُؤْمِنُ وَالْمُنَافِقُ، وَالرَّجُلُ وَالْمَرْأَةُ، وَالصَّغِيرُ وَالْكَبِيرُ، وَالْعَبْدُ وَالْحُرُّ، فَيُوشِكُ قَائِلٌ أَنْ يَقُولَ: مَا لِلنَّاسِ لاَ يَتَّبِعُونِي، وَقَدْ قَرَأْتُ الْقُرْآنَ؟ مَا هُمْ بِمُتَّبِعِي حَتَّى أَبْتَدِعَ لَهُمْ غَيْرَهُ. فَإِيَّاكُمْ وَمَا ابْتُدِعَ؛ فَإِنَّ مَا ابْتُدِعَ ضَلاَلَةٌ، وَأُحَذِّرُكُمْ زَيْغَةَ الْحَكِيمِ،

(١) الإتقان (٢/ ٤٧٧).
(٢) مناهل العرفان (٢/ ٤٠).
(٣) الإتقان (٤/٢٠١).
(٤) التبيان في أقسام القرآن (ص: ٢٣٠).

فَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَقُولُ كَلِمَةَ الضَّلَالَةِ عَلَى لِسَانِ الْحَكِيمِ، وَقَدْ يَقُولُ الْمُنَافِقُ كَلِمَةَ الْحَقِّ». قَالَ يزيد: قُلْتُ لِمُعَاذٍ: مَا يُدْرِينِي -رَحِمَكَ اللَّهُ- أَنَّ الْحَكِيمَ قَدْ يَقُولُ كَلِمَةَ الضَّلَالَةِ، وَأَنَّ الْمُنَافِقَ قَدْ يَقُولُ كَلِمَةَ الْحَقِّ؟ قَالَ: «بَلَى، اجْتَنِبْ مِنْ كَلَامِ الْحَكِيمِ الْمُشْتَهِرَاتِ، الَّتِي يُقَالُ لَهَا: مَا هَذِهِ؟ وَلَا يَثْنِيَنَّكَ ذَلِكَ عَنْهُ، فَإِنَّهُ لَعَلَّهُ أَنْ يُرَاجِعَ، وَتَلَقَّ الْحَقَّ إِذَا سَمِعْتَهُ، فَإِنَّ عَلَى الْحَقِّ نُورًا»(١).

الأدب الرابع: صحة المقصد ليجد التسديد:

بأن يريد المفسر من تفسيره إرضاء الله بهداية الناس، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وجابر بن عبد الله رضي الله عنهم، أن رَسُول اللَّهِ ﷺ: «مَنْ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ لِيُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، وَيُجَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، وَيَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ جَهَنَّمَ»(٢)، وعَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْأَزْدِيِّ صَاحِبِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَثَلُ الْعَالِمِ الَّذِي يُعَلِّمُ النَّاسَ الْخَيْرَ وَيَنْسَى نَفْسَهُ كَمَثَلِ السِّرَاجِ يُضِيءُ لِلنَّاسِ وَيَحْرِقُ نَفْسَهُ»(٣).

الأدب الخامس: عدم الغرور أو الكِبْر، فهما يُفْضيان إلى بطر الحق، وغمط الناس:

فقد حذر النبي ﷺ من المتكبرين المغرورين من قراء المسلمين، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يظهر هذا الدين حتى يجاوز البحار، وحتى يخاض بالخيل في سبيل الله، ثم يأتي قوم يقرؤون القرآن، فإذا قرأوه قالوا: قد قرأنا القرآن، فمن أقرأ منا؟ فمن أعلم منا؟ ثم التفت ﷺ إلى أصحابه، فقال: «هل ترون في أولئك من خير؟» قالوا :لا، قال: «فأولئك منكم، وأولئك من هذه الأمة، وأولئك هم وقود النار»(٤).

---

(١) أبو داود (٤٦١١)، وصححه الأرناؤوط، والألباني.

(٢) وهذا اللفظ هو حديث أبي هريرة رواه ابن ماجه (٢٦٠)، وقال الأرناؤوط:" إسناده ضعيف جدًا، عبد الله بن سعيد المقبري متروك، واتهمه يحيى بن سعيد بالكذب"، وضعفه البوصيري في مصباح الزجاجة (٣٨/١)، وحسنه الألباني.

أما حديث جابر فنصه:" لَا تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ لِتُبَاهُوا بِهِ الْعُلَمَاءَ، وَلَا لِتُمَارُوا بِهِ السُّفَهَاءَ، وَلَا تَخَيَّرُوا بِهِ الْمَجَالِسَ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ، فَالنَّارُ النَّارُ" رواه ابن ماجة (٢٥٤)، قال الأرناؤوط:" حسن لغيره، رجاله ثقات رجال الصحيح، لكن فيه عنعنة ابن جريج، وأبي الزبير"، وصححه الألباني لغيره.

(٣) المعجم الكبير للطبراني (١٦٨١)، قال الألباني في الصحيحة (٧/ ١١٣٣):" وهذا إسناد جيد- وحسنه المنذري في "الترغيب "، رجاله ثقات من رجال البخاري؛ غير علي بن سليمان الكلبي، وهو ثقة، وثقه هشام بن عمار".

(٤) الطبراني في الأوسط (٦٢٤٢) من حديث عمر رضي الله عنه، ورواه أبو يعلى (٦٦٩٨)، وابن المبارك في الزهد (٤٥٠) واللفظ له من حديث العباس رضي الله عنه، وأورده الألباني في الصحيحة برقم (٣٢٣٠)، وبعد أن ذكر طرق الحديث قرر أنه يرتقي إلى الحسن.

والغرور والكبر يجعلان الإنسان يعتقد فِي نَفْسِهِ أنه من أهل الاجتهاد، وإن لم يبلغ تلك الدرجة، فيجعل "رَأْيَهُ رَأْيًا وَخِلَافَهُ خِلَافًا"-كما يقول الشاطبي[١]-، ويورثه الكبرُ الارتباكَ في تقرير المسائل، حتى تراه آخذًا ببعض الشرع ليضرب به الشرع، كأن يأخذ جزئيات الشريعة في هدم كلياتها، أو في هدم جزئياتها الأخرى، وحذر النبي ﷺ من ذلك فقالَ: «إِنَّ الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه مِنَ النَّاسِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ عَالِمٌ اتَّخَذَ النَّاسُ رؤوسًا جهالاً فسئلوا، (فأفتوا) بغير علم، فضلوا وأضلوا»[٢].

وفي الآداب السابقة قال الشيخ الطالب زيدان -وفقه الله-:

وأَنْ يكـــونَ ذَا بَصِـــيرَةٍ بِمَـــا حَـــدَّدَهُ في ذا الـــمجالِ العُلَمَـــا
كَقَـــوْلِ فـــارِسِ الْمَجَـــالِ الـــدَّانِي (مَـــنْ كـــانَ ذا فهْـــمٍ وذا إتْقـــانِ)
(مِـــن مقـــرئٍ مُنتَصِـــبٍ إمـــام) إلى انْتِهَـــا أَبْيـــاتِ ذَا الإمـــامِ
واشْـــتَرطوا صِـــحَّةَ الِاعْتِقـــادِ مَـــعَ لُـــزومِ سُـــنَّةِ الرَّشـــادِ
وصِـــحَّةَ المقْصَـــدِ فِي الْمَقُـــولِ لِيُمْـــنَحَ التَّسْـــديدَ في المنْقـــولِ
وعَـــدَمَ الغُـــرُورِ والكِـــبْرِ. فَـــذَرْ ذَانِ يَجُـــرَّانِ لِغَمْـــطٍ وَبَطَـــرْ

الأدب السادس: أن يكون الرجوعُ إلى الكتاب المجيد رجوعَ افتقار لا رجوعَ استظهار:

وقد قسم أبو إسحاق الشاطبي ﷺ (ت٧٩٠هـ) الرجوعَ إلى الشريعة كتابًا وسنة إلى قسمين: أَحَدُهُمَا: مشروع، والآخر: ممنوع[٣].

أما المشروع، فهو: رجوع الِافْتِقَارِ، بأن ترجع إلى القرآن رجوع المفتقر إلى المعلومة الصحيحة سواء أكانت المعلومة التي تريدها تتعلق بالتشريع مثل الحلال والحرام في البيع، أم تتعلق بالأخبار مثل: وجود فرعون وهامان، ويركز الشاطبي ﷺ على الرجوع في البحث عن حكم وقائع الحياة، فيقرر أن الرجوع المشروع يفتقر فيه المرء إلى الشرع في بحثه عن مراد الله ﷻ في الحكم على الحوادث المختلفة الفردية والجماعية؛ لِتَقَعَ النازلة فِي الْوُجُودِ عَلَى وِفَاقِ مَا أَعْطَى الدَّلِيلُ مِنَ الْحُكْمِ، أَمَّا قَبْلَ

(١) الاعتصام (٣/٩٨).
(٢) البخاري (١٠٠).
(٣) الموافقات (٣/٢٩٠، ٢٩١).

وُقُوعِهَا؛ فَبِأَنْ تُوقَعَ عَلَى وَفْقِهِ، وَأَمَّا بَعْدَ وُقُوعِهَا؛ فَلْيَتَلَافَى الْأَمْرَ، وَيَسْتَدْرِكَ الْخَطَأَ الْوَاقِعَ فِيهَا، بِحَيْثُ يَغْلِبُ عَلَى الظَّنِّ أَوْ يَقْطَعُ بِأَنَّ ذَلِكَ قَصْدُ الشَّارِعِ، وَهَذَا الْوَجْهُ هُوَ شَأْنُ اقْتِبَاسِ السَّلَفِ الصَّالِحِ الْأَحْكَامَ مِنَ الْأَدِلَّةِ.

وأما الرجوع الممنوع إلى كتاب الله فهو: رجوع الاستظهار؛ بأن يرجع إلى الشريعة لقصد الِاسْتِظْهَارِ عَلَى صِحَّةِ هدفه أو أفعاله أو أفكاره في المجال التشريعي أو في المجال الخبري، ففِي النَّازِلَةِ الْعَارِضَةِ يرجع إلى القرآن فيجعل ما في خاطره هو الأصل، ويبحث عما يسوغ ذلك؛ ليكون ظهيرًا له أمام الخلق حبًّا لهواه مِنْ غَيْرِ تَحَرٍّ لِقَصْدِ الشَّارِعِ، قال الشاطبي ﵀: "وَهَذَا الْوَجْهُ هُوَ شَأْنُ اقْتِبَاسِ الزَّائِغِينَ الْأَحْكَامَ مِنَ الْأَدِلَّةِ"؛ ولذا سُمِّيَ أَهْلُ الْبِدَعِ: أَهْلَ الْأَهْوَاءِ؛ لِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ، فَلَمْ يَأْخُذُوا الْأَدِلَّةَ الشَّرْعِيَّةَ مَأْخَذَ الِافْتِقَارِ إِلَيْهَا، وَالتَّعْوِيلِ عَلَيْهَا، بلْ قَدَّمُوا أَهْوَاءَهُمْ، وجَعَلُوا الْأَدِلَّةَ الشَّرْعِيَّةَ تبعًا؛ إعجابًا بآرائهم كبرًا وغطرسة، أو طَلَبًا لِلرِّيَاسَةِ بموافقة أهواء غيرهم من الأغنياء والكبراء والأمراء، أو المؤسسات الدولية.

ولزيادة الإيضاح يمكن أن نقول: رجوع الاستظهار نوعان:

استظهار ممنوع وهو الذي قرره الشاطبي ﵀ بأن تستظهر بالشريعة على هواك الذي ملت إليه.

واستظهار مشروع بأن تستظهر بالشريعة على معنى حسن ظهر لك من خلال الشريعة، وأحببت البحث عن أدلة أخرى لزيادة الاطمئنان كما فعل الشافعي في مسألة تطلب الدليل على الإجماع، أو كما صنع قبله عمر بن الخطاب رضي الله عنه في تقسيم الأراضي المفتوحة.

وبذلك ترى أننا قسمنا الرجوع إلى ثلاثة أقسام تفصيلية: رجوع الافتقار وهو مشروع، ورجوع استظهار لأجل تثبيت معنى حسن وهو مشروع أيضًا، ورجوع استظهار لتثبيت هوى من الأهواء، وهذا هو النوع الممنوع.

وَيَظْهَرُ هَذَا الْمَعْنَى في قوله جل ذكره: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [آل عِمْرَانَ: ٧]؛ فيتبعون ما تشابه منه لأنهم يريدون الفتنة لا معرفة ما أراد الله.

وأما الصنف الصادق فهم: ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾، وهؤلاء الراسخون من بلاغة القرآن العظيمة أن جعلهم في محل إعرابي يمكن من خلاله أن نفهم لهم صفتين:

الصفة الأولى: الاجتهاد في البحث عن مراد الله، ونفهم هذه الصفة عندما تكون كلمة ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ﴾ معطوفة على لفظ الجلالة، ويكون المعنى: وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون حال قولهم ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ أي أنهم بحثوا عن مراد الله، وقرروه، وقرروا أن يقدموا كل ما ظهر لهم من معاني كلام ربهم على أهوائهم.

الصفة الثانية: التفويض إن لم يعرفوا المعنى المراد، ونفهم هذه الصفة عندما يكون الوقف تامًّا على قوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾، وما بعدها ابتداء، ويكون المعنى: والراسخون في العلم إن لم يظهر لهم المعنى المراد يفوضون الأمر لنا يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾، وَيَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا﴾ [آل عمران: ٨].

ورجوع الافتقار ورجوع الاستظهار أصدر فيهما النبي ﷺ التنبيه التحذيري في قوله: «القرآن شافعٌ مُشَفَّع، وماحِلٌ مُصَدَّق: من جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلف ظهره ساقه إلى النار»(١).

«جعله أمامه» أي أقبل عليه مفتقرًا إلى العلم الذي فيه، فجعله أمامه يقوده إلى حيث أراد الله، فصار القرآن أمام الإنسان، والقرآن يقود الإنسان.

«جعله خلف ظهره» أي قرأ القرآن ليجد فيه آيات يلوي معناها حتى تتبع هواه، فصار القرآن بعد الإنسان، والإنسان يقود القرآن، والنتيجة: «القرآن شافع مشفع» بأن يشفعه الله فيك، وإما «ماحل مصدق» أي خصم يصدق الله دعواه عليك.

وصاغ ذلك الشيخ الطالب زيدان —وفقه الله تعالى-:

وأنْ يَـــــرَى رَجُوعَــــهُ افْتِقَـــارَا إلَى كِـتـــــابِ اللهِ لاَ اسْتِظْهَـــــارَا
مُجْتَنِبًـــا رذائِـــلَ التَّلاَعُـــــبِ بالــنَّصِّ. وَهْـــيَ لِـثَلاثٍ تُنْسَـــبِ
هِـــيَ ادِّعَـــا رُتْبَـــةِ الإجْتِهـــادِ مَـــعَ قُصـــورِهِ ونَـــزْرِ الـــزَّادِ
ثُمَّ اتِّباعُــــهُ الْهَــــوى الْمُـــراوِدِ تَصْـــمِيمُهُ عـــلى اقْتِفَـــا الْعَوائِـــدِ

(١) ابن حبان (١٢٤)، من دون لفظ (شافع)، وبكسر همزة (إمامه)، وهو مورد الظمآن (١٧٩٣) باللفظ المذكور في المتن، لكن بكسر همزة (إمامه)، وجود إسناده الأرناؤوط، والألباني في الصحيحة: (٢٠١٩)، والماحل الخصم الذي يفضح ظلم الإنسان.

الأدب السابع: معرفة أركان التفسير السبعة ليصل إلى التفسير الصحيح، وهي:

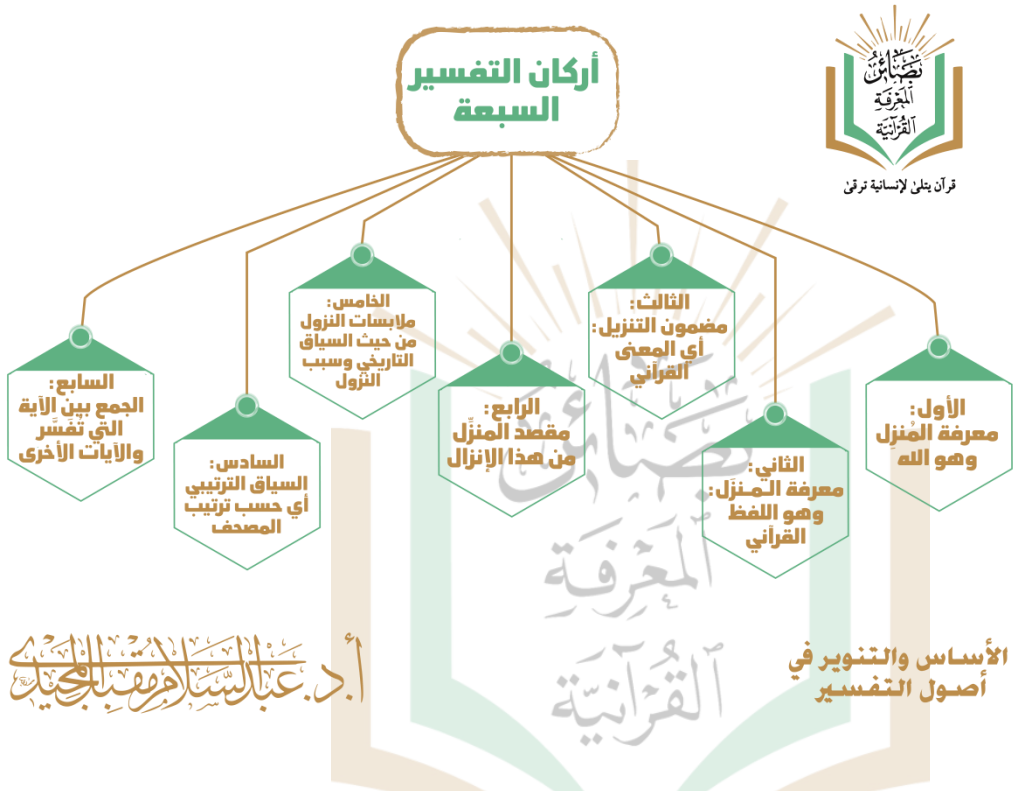

فالأول: معرفة المُنزِل: (وهو الله ﷻ، فيجب حمل كلامه على ما يليق بذاته).

والثاني: معرفة المُنزَل: وهو اللفظ القرآني، فتعرف له قدره، وتمنع إدخال ما ليس منه فيه، وأشار إلى ذلك أبو حيان ﷺ في أول التعريف الذي ارتضاه للتفسير بقوله: "معرفة كيفية النطق بألفاظ القرآن الكريم".

والثالث: مضمون التنزيل: أي المعنى القرآني من حيث الابتداء، لا من حيث النتيجة الكلية، وهذا الذي هو الذي أشار إليه أبو حيان ﷺ بقوله: "ودلالاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية".

والرابع: مقصد المنزِّل -جل مجده- من هذا الإنزال: فعندما تقرأ مثلاً ما يتعلق بالحدود الجنائية فإنه يَقِرُّ في نفسك أن المنزِّل ما أراد تعذيب الجاني لذاته بل أراد الرحمة به وبالمجتمع حوله، وكيف لا يكون ذلك وأنت تبدأ السورة بالبسملة، والبسملة تتضمن من صفاته العلية ﷻ يرجعان إلى الرحمة.

وأبرز مثال يوضح لك هذه المسألة في القرآن الصفحة الأولى من سورة النور؛ فإن فيها وجوب إقامة العقوبة الجنائية لمن ارتكب جريمة الزنا، ووجوب إقامة العقوبة الجنائية أيضًا لمن ارتكب جريمة القذف، وفيها الإشارة إلى التفريق بين الزوجين بعد التلاعن بينهما، فهذه العقوبات الثلاث يظهر منها بادئ الرأي أنها مؤلمة، ولكن الله ﷻ ختم ذكر هذه العقوبات بأن قال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ١٠] فجمع بين الفضل الذي حبا به الناس، والرحمة، والتوبة والحكمة، فليس قصده من إنزال هذه العقوبات إيلام الناس، وإنما قصده الفضل، والرحمة، والتوبة، والحكمة.

والخامس: **ملابسات النزول من حيث السياق التاريخي**، والمراد به سبب النزول أو ما حف النزول من ملابسات تاريخية كما ترى في سورتي المزمل والمدثر الجامعتين بين قيام الليل وقيام النهار (ففي المزمل إعداد لمهمة النهار، وفي المدثر تنفيذ لهذه المهمة، هي انقاذ الناس، وقد يقال: المدثر تنفيذ، والمزمل إعانة).

والسادس: **السياق الترتيبي** أي حسب ترتيب المصحف، وهذا يقتضي معرفة محددات السياق، وهما: السِباق، واللّحاق.

والسابع: **الجمع بين الآية التي تُفَسَّر والآيات الأخرى**، بأن يظهر الجمع، ولانضرب بعضها ببعض.

وصاغ ذلك الشيخ الطالب زيدان –وفقه الله تعالى–:

أرْكـــانُ تفـــسيرِ الكِتـــابِ المـــنْزَلِ: مَـــعْـــرِفَـــةُ المـــنْـــزِلِ والمـــنَـــزَّلِ
مَضْـــمـــونِ تَـنْزيـــلٍ، مُـلابَســـاتِ نُـزولِـــه، والجـمْـــعِ لـــلآيـــاتِ
سادِسُـــها الأخـــيرُ: تَرْتيـــبُ السِّـــياقْ حافاتِـــهِ، مثـــلُ: السِّـــباقِ، واللّحـــاقْ

وقد ذكر ابن تيمية بعض ما قررنا في هذه الأركان، فقالرحمه الله : "فَمَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ، وَتَدَبَّرَ مَا قَبْلَ الْآيَةِ، وَمَا بَعْدَهَا، وَعَرَفَ مَقْصُودَ الْقُرْآنِ: تَبَيَّنَ لَهُ الْمُرَادُ، وَعَرَفَ الْهُدَى وَالرِّسَالَةَ، وَعَرَفَ السَّدَادَ مِنْ الِانْحِرَافِ وَالِاعْوِجَاجِ. وَأَمَّا تَفْسِيرُهُ بِمُجَرَّدِ مَا يَحْتَمِلُهُ اللَّفْظُ الْمُجَرَّدُ عَنْ سَائِرِ مَا يُبَيِّنُ مَعْنَاهُ، فَهَذَا مَنْشَأُ الْغَلَطِ مِنْ الغالطين؛ لَا سِيَّمَا كَثِيرٌ مِمَّنْ يَتَكَلَّمُ فِيهِ بِالِاحْتِمَالَاتِ اللُّغَوِيَّةِ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ أَكْثَرُ غَلَطًا مِنْ الْمُفَسِّرِينَ الْمَشْهُورِينَ؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَقْصِدُونَ مَعْرِفَةَ مَعْنَاهُ كَمَا يَقْصِدُ ذَلِكَ الْمُفَسِّرُونَ. وَأَعْظَمُ غَلَطًا

مِنْ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مَنْ لَا يَكُونُ قَصْدُهُ مَعْرِفَةَ مُرَادِ اللَّهِ؛ بَلْ قَصْدُهُ تَأْوِيلُ الْآيَةِ بِمَا يَدْفَعُ خَصْمَهُ عَنْ الِاحْتِجَاجِ بِهَا، وَهَؤُلَاءِ يَقَعُونَ فِي أَنْوَاعٍ مِنْ التَّحْرِيفِ"(١).

هنا يتبادر لك سؤال: ما مقام تفسير المستشرقين الذين يفسرون القرآن دون أن يعترفوا بأن منزله هو الله، فلا يعترفون بالركن الأول من أركان التفسير؟

إليك بعض التفصيل في ذلك:

إنْ قَصَدَ معرفة المعنى بصورة موضوعية فيوشك أن يقوده القرآن إلى الإقرار الحتمي بأن منزله هو الله، وقد رأينا ذلك في كثير من الناس، ورأينا أن بعض هؤلاء تركوا العناد فأسلموا عندما شعروا بأن القرآن لا يمكن أن يقوله بشر، مثل: (جيفري لانج) فإنه قرأ القرآن على اعتقاد أن الذي ألفه بشر، ولم ينته حتى أيقن بأن القرآن كلام الله، ورأينا في المقابل بعض هؤلاء يصر على العناد، فيرى معاني لا يمكن أن يؤلفها بشر، لكنه يبحث عن تأويل بعيد حتى لا يسلم بالنتيجة الحتمية.

وبعضهم يأتي بالتفسير الصحيح لكنه يفر من أن يُذعن للإسلام ظاهرًا.

وبالنسبة لنا فإن القرآن هو الكنز الذي يُفيض بالمعاني المتجددة، وقد يظهر معنى من المعاني عند غير المسلمين، فيُعرض عند ذلك على مقرراتنا وثوابتنا فإما أن نقره وإما أن ننكره، حاله في ذلك حال الكتب السابقة فإننا على يقين من اختلاط كلام البشر فيها بكلام الله، فلا بد أن نعرض ما فيها على ما عندنا للحكم عليها.

الأدب الثامن: معرفة الفرق بين التفسير والتدبر:

ذهب بعضهم إلى أنهما شيء واحد، ولعل هناك فرقًا بينهما، بيانه في الآتي:

الأول: فالتفسير: بيان اللفظة القرآنية بشرحها، وكشف متعلقاتها من الناحية اللغوية، والسياقية، والشرعية، والتدبر: بيان لما وراء اللفظة من المعاني الدقيقة، واستخراجٌ لدرر هداياته، ولذا أخذ من دبر الشيء.

الثاني: التفسير: كلام علمي نظري عن معاني الآيات.

والتدبر: اتعاظٌ بالمعنى، واعتبارٌ به.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٩٥).

الثالث: التدبر مرحلة تالية لتفسير الوسيلة في الغالب، إلا أن الله -جل مجده- قد يكرم بعضهم بمعنى ينقدح في ذهنه بادئ الرأي، والمقصود بمرحلة ما بعد التفسير، أي: ما بعد التأكد من المعنى المباشر للآية، مما يعرفه العربي عادة بلغته، غير محتاج لمطالعة أقوال المفسرين وتدقيقاتهم.

ولكنني أؤكد على أن العامي ينبغي أن يعرض ما انقدح في ذهنه من تدبر على المختصين العارفين لإقراره أو لتصحيحه، وهذا في غير التدبر المباشر الواضح، مثل القارئ الذي قرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦] ثم ظل يرددها متأثرًا.

وهنا أذكر بأنني ألفت كتابي (يوسف عليه السلام في بيت العزيز) للرد على تدبرٍ شاع حول قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]، فقد زعم بعض المتدبرين أن يوسف عليه السلام سأل الله السجن هربًا من المعصية، ولو سأل الله العافية لعافاه الله.. هكذا قال هذا المتدبر، فأخطأ في هذا الفهم، وقد شاع هذا المعنى منذ القرن الرابع الهجري.

الرابع: التفسير طلب للمعنى من الآيات، أما التدبر فمرحلة أُولى للتذكر، فيظهر به التأثر بعد النظر والتفكر، وهنا نعلم قيمة كلام سيدنا عَلِيّ رضي الله عنه في قوله: "الْفَقِيهُ حَقُّ الْفَقِيهِ الَّذِي لَا يُقَنِّطُ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ الله، وَلَا يُؤَمِّنُهُمْ مِنْ عَذَابِ الله، وَلَا يُرَخِّصُ لَهُمْ فِي مَعَاصِي الله، إِنَّهُ لَا خَيْرَ فِي عِبَادَةٍ لَا عِلْمَ فِيهَا، وَلَا خَيْرَ فِي عِلْمٍ لَا فَهْمَ فِيهِ، وَلَا خَيْرَ فِي قِرَاءَةٍ لَا تَدَبُّرَ فِيهَا"(١). ولذا يُخاطب به الناس أجمعون على عكس التفسير، فالمكلف به الراسخون. أولم يقل الله -جلَّ مجده-: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، ولاحظ الآية: فقد عمم التدبر، والآية في سورة ص، وهي مكية، والخطاب فيها لعموم المسلمين وغيرهم، لكن التذكر يختص به أولو الألباب.

فإن قلت: هلَّا ذكرت لنا نماذج من تدبر سلفنا الصالح؟

فخذ أنموذجًا رواه ابْن أَبِي مُلَيْكَةَ في التدبر، قَالَ: صَحِبْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَمِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى مَكَّةَ، وَكَانَ يصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، فَإِذَا نَزَلَ قَامَ شطْرَ اللَّيْلِ، وَيُرَتِّلُ الْقُرْآنَ يَقْرَأُ حَرْفًا حَرْفًا،

(١) الدارمي ت الغمري (ص: ١٥٨)، قال د.مرزوق:" سنده خسن". القطوف الدانية فيما انفرد به الدارمي عن الثمانية (ص: ٨٠).

وَيُكْثِرُ فِي ذَلِكَ مِنَ النَّشِيجِ، وَالنَّحِيبِ"، وَيَقْرَأُ: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩][(١)]، وقَالَ مُطَرِّفٌ: "إِنِّي لَأَسْتَلْقِي مِنَ اللَّيْلِ عَلَى فِرَاشِي، فَأَتَدَبَّرُ الْقُرْآنَ وَأَعْرِضُ عَمَلِي عَلَى عَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَإِذَا أَعْمَالُهُمْ شَدِيدَةٌ ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات: ١٧]، ﴿يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٤]، ﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ [الزمر: ٩]، فَلَا أُرَانِي فِيهِمْ، فَأَعْرِضُ نَفْسِي عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾ [المدثر: ٤٢]، فَأَرَى الْقَوْمَ مُكَذِّبِينَ، وَأَمُرُّ بِهَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢]، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا وَأَنْتُمْ يَا إِخْوَتَاهُ مِنْهُمْ"[(٢)]، وعَنْ وُهَيْبِ بْنِ الْوَرْدِ قَالَ: «نَظَرْنَا فِي هَذَا الْحَدِيثِ، فَلَمْ نَجِدْ شَيْئًا أَرَقَّ لِهَذِهِ الْقُلُوبِ، وَلَا أَشَدَّ اسْتِجْلَابًا لِلْحَقِّ مِنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ لِمَنْ تَدَبَّرَهُ»[(٣)]، وَقَالَ رَجُلٌ لِلْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ: يَا أَبَا سَعِيدٍ، إِنِّي إِذَا قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ وَتَدَبَّرْتُهُ، كِدْتُ أَنْ أَيْأَسَ وَيَنْقَطِعَ رَجَائِي، فَقَالَ الْحَسَنُ: «إِنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ، وَأَعْمَالُ ابْنِ آدَمَ إِلَى الضَّعْفِ وَالتَّقْصِيرِ، فَاعْمَلْ وَأَبْشِرْ»[(٤)].

من قواعد التدبر: قد يحصل التدبر، ويحصل التأثر، وينعدم التذكر:

وترى أن هذا ليس خاصًّا بالمسلمين بل تراه في غيرهم، أو ما تذكر -أيدك الله- قصة الوليد بن المغيرة عندما سمع القرآن فتدبر، وتأثر، وقال لأبي جهل عن القرآن: "وَمَاذَا أَقُولُ؟ فَوَاللَّهِ مَا فِيكُمْ رَجُلٌ أَعْلَمَ بِالأَشْعَارِ مِنِّي، وَلاَ أَعْلَمَ بِرَجَزٍ وَلاَ بِقَصِيدَةٍ مِنِّي، وَلاَ بِأَشْعَارِ الْجِنِّ. وَاللَّهِ مَا يُشْبِهُ الَّذِي يَقُولُ شَيْئًا مِنْ هَذَا. وَوَاللَّهِ: إِنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي يَقُولُ حَلاَوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلاَوَةً، وَإِنَّهُ لَمُثْمِرٌ أَعْلاَهُ مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَمَا يُعْلَى، وَإِنَّهُ لَيَحْطِمُ مَا تَحْتَهُ" فقَالَ له أبو جهل: لاَ يَرْضَى عَنْكَ قَوْمُكَ حَتَّى تَقُولَ فِيهِ. قَالَ: فَدَعْنِي حَتَّى أُفَكِّرَ، فَلَمَّا فَكَّرَ قَالَ: هَذَا سِحْرٌ يُؤْثَرُ يَأْثُرُهُ مِنْ غَيْرِهِ. فَنَزَلَتْ ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾[(٥)].

---

(١) فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل (١٨٤٠)، وقال المحقق: "إسناده حسن"، شعب الإيمان (١٨٩٩).

(٢) شعب الإيمان (٦٧٦٦).

(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٨/ ١٤٢).

(٤) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٩/ ٢١٧).

(٥) رواه الحاكم في المستدرك (٣٨٧٢)، وقال:" صَحِيحُ الإِسْنَادِ عَلَى شَرْطِ الْبُخَارِيِّ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ". وقال العراقي: ورواه البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بسند جيد. المغني عن حمل الأسفار (٢٢٣/١)، شعب الإيمان (١٣٣).

الأدب التاسع: معرفة الألفاظ التي يستخدمها المفسر في التعبير عن التفسير:

درج المفسرون –كغيرهم من المحدثين والفقهاء– على استخدام بعض الألفاظ الدالة على وصف خطاب الله –تعالى ذكره– لعباده في كتابه، قصدًا إلى إيجاز العبارة، كقولهم: خاطب الله بهذه الآية المؤمنين، وشَرَّف الله بالذكر الرجل المؤمن من آل فرعون، وحكى الله تعالى عن أم موسى، ونحو هذا من إسناد أفعالٍ إلى الله تعالى لم يأت إسنادها بتوقيف من الشرع[١]، فهل يجوز ذلك؟

قرر المحققون –كابن تيمية، وابن القيم– عددًا من الضوابط لهذه القضية، منها:

أولاً: يجوز ذلك؛ لأن ما يدخل في باب الإخبار عنه تعالى أوسع مما يدخل في باب الإنشاء في باب أسمائه الحسنى وصفاته العليا، فالصحيح أن يُفَرَّقَ بَيْنَ أَنْ يُدْعَى الله ﷻ بِالْأَسْمَاءِ، أَوْ يُخْبَرَ بِهَا عَنْهُ.

فَعند الدعاء لا يدعو الداعي إِلَّا بِالْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى التي وردت في الشرع، كَمَا قَالَ – تَعَالَى جَدُّه–: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨١]، وَأَمَّا عند الْإِخْبَار عَنْهُ ﷻ فيُقبل التوسع بما لم يرد توقيفًا بِحَسَبِ الْحَاجَةِ؛ كالترجمة إلى غير العربية، ومن ذلك قول النبي ﷺ: يعلم حصين الخزاعي: «قُلِ اللهُمَّ قِنِي شَرَّ نَفْسِي، وَاعْزِمْ لِي عَلَى أَرْشَدِ أَمْرِي[٢]»، وقالت أم سلمة رضي الله عنها: «ثم عزم الله لي..» في الحديث في موت أبي سلمة رضي الله عنه وإبدال الله لها منه رسول الله ﷺ[٣].

ثانيًا: تُشتَقُّ الصفات من الأسماء، ولا تشتق الأسماء من الصفات الفعلية؛ فنشتق من أسماء الله: الرحيم والقادر والعظيم صفاتِ الرحمة والقدرة والعظمة، لكن لا نشتق من صفات الإرادة والمجيء والمكر اسم المريد والجائي والماكر، فأسماؤه سبحانه وتعالى أوصاف؛ كما قال ابن القيم رحمه الله في (النونية)[٤]:

أسماؤُهُ أوصافُ مَدْحٍ كُلُّها ... مُشْتَقَّةٌ قَدْ حُمِّلَتْ لِمَعان

(١) تفسير ابن عطية (١/ ٥٤).

(٢) أحمد ١٩٩٩٢، وقال الأرناؤوط: «إسناده صحيح على شرط الشيخين».

(٣) مسلم (٣ / ٣٨) ٢١٦٧.

(٤) نونية ابن القيم (ص: ٢١٦).

ثالثًا: الاسم لا يُشتق من أفعال الله؛ لكن الصفات تشتق من الأفعال بقدرها، ومثاله: لا نشتق من كونه سبحانه يحب ويكره ويغضب اسم المحب والكاره والغاضب، أما صفاته؛ فتشتق من أفعاله، فنثبت له صفة المحبة والكره والغضب ونحوها من تلك الأفعال، فباب الصفات أوسع من باب الأسماء.

وفي باب استعمالات المفسرين: هل يجوز للمفسر أن يقول أثناء تفسيره: كأن الله ﷻ يقول: كذا وكذا؟

ينبغي أن نعرف أن لكلمة "كأن" معانٍ حصرها ابن هشام في (مغني اللبيب) في أربعة[١]، فمنها:

١) التَّشْبِيه إذا كان خبرها جامدًا مثل قولهم: كأنَّ محمّدًا أسدٌ.

٢) والظَّنّ إذا كان خبرها مُشتقًّا أو جملة مثل قولهم: كأن القوم باتوا غافلين.

٣) والتقريب مثل قولهم: كأنك بالفرج آتٍ.

والمعاني الثلاثة لهذه الكلمة توضح أمرًا محددًا، إلا أن التشبيه يصور شيئًا بصورة شيء آخر، أو مسألة بمسألة، فإن استعملها المفسر في قوله: كأن الله يقول، فهو يريد أن يقرب معنىً ظهر له ضمن الآية، ولا يريد أن ينسب إلى الله تعالى ذلك القول.. من أجل هذا الشَبَه والتقريب يذكر المفسر كلمة: "كأن" في البداية، بل ورد في السنة ما هو أوسع من ذلك:

فقد قال شاعر الرسول ﷺ حسان بن ثابت رضي الله عنه قال بحضرة النبي ﷺ[٢]:

وَقَـــالَ اللهُ: قَـــدْ أَرْسَـــلْتُ عَبْـــدًا ... يَقُـــولُ الْحَـــقَّ لَـــيْسَ بِـــهِ خَفَـــاءُ

وَقَـــالَ اللهُ: قَـــدْ يَسَّـــرْتُ جُنْـــدًا ... هُـــمُ الْأَنْصَـــارُ عُرْضَـــتُهَا اللِّقَـــاءُ

فأنت ترى أنه لم يستخدم (كأن) احترازًا، وإنما أتى بمعانٍ وردت أصولها في القرآن الكريم، وبذا ترى جواز مثل هذا الاستعمال عندما يأمن القائل من عدم نسبة ما يوضحه إلى الله ﷻ حرفيًا.

(١) ينظر: المغني لابن هشام (ص: ٢٥٣، ٢٥٤)، والمعنى الرابع: التحقيق.

(٢) مسلم (٦٤٧٨).

وقد مدح رسول الله ﷺ هذا الصحابي فقال فيما رواه مسلم: «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ لَا يَزَالُ يُؤَيِّدُكَ مَا نَافَحْتَ عَنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ». وقال أيضًا: «هَجَاهُمْ حَسَّانُ [يعني: قريشًا] فَشَفَى وَاشْتَفَى»(١).

وقد درج علماؤنا على استعمال هذا الأسلوب في استلهام المعاني من الآيات، وذلك أكثر من أن يحصى، فلنضرب لذلك بعض أمثلة من استعمالاتهم:

فأخرج عبد الرَّزَّاق عَن قَتَادَة رحمه الله ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ [القصص: ٨٢] يَقُول: أَو لَا يعلم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ وَفِي قَوْله ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ يَقُول: أَو لَا يعلم ﴿أَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾(٢)، فها هو قتادة رحمه الله يدخل شرحه للمعنى ضمن الآية.

وفي تفسير الثعلبي: "فكأن الله تعالى يقول لرسوله ﷺ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] أي كن صادقًا فيما ابتليت به مثل صدق إبراهيم"(٣).

وفي كتاب "تقويم الأدلة في أصول الفقه" لأبي زيد عبد الله بن عمر الدّبوسيّ الحنفي (ت ٤٣٠هـ):

"كأن الله تعالى يقول: جعلت ما يتصور من الصوم غدًا فرضًا لي بحق الوقت عليكم"(٤).

وفي تفسير الرازي: "كَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: يَا عَبْدِي قَلْبُكَ بُسْتَانِي وَجَنَّتِي بُسْتَانُكَ، فَلَمَّا لَمْ تَبْخَلْ عَلَيَّ بِبُسْتَانِكَ"(٥).

وفي تفسير القرطبي: "فَكَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لِرَسُولِهِ ﷺ: اصْبِرْ، أَيْ كُنْ صَادِقًا فِيمَا ابْتُلِيَتَ بِهِ مِثْلُ صِدْقِ إِبْرَاهِيمَ"(٦).

وفي معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي: "كأن الله يقول مكر قَوْم نوح وأرادوا قَتْله وإخراج نوح من بينهم، ومكَرْنا نحن بخروجهم مِنْ وجه الأرض"(٧).

---

(١) مسلم (٦٤٧٨).

(٢) تفسير الطبري (١٩/٦٣٤).

(٣) تفسير الثعلبي (٩/٢٦).

(٤) تقويم الأدلة في أصول الفقه (ص: ٧٢).

(٥) تفسير الرازي (١/٩٣).

(٦) تفسير القرطبي (١٦/٢٢١).

(٧) معترك الأقران (٢/٥٠٥).

وفي حاشية الصاوي على تفسير الجلالين: "فكأن الله يقول لهم ما أشركتموه لا يخرج عن السماوات والأرض، وشأن الشريك أن يكون مستقلاً خارجًا عن مملكة الشريك الآخر"(١)، وهو كثير عنده.

وفي تفسير القاسمي: "فكأنّ الله يقول: كن قارئًا بقدرتي وبإرادتي"(٢).

وفي التحرير والتنوير: "فَكَأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ قَدْ عَرَفْنَا دَخَائِلَكُمْ"(٣).

وتجد هذا التعبير فاشيًا على ألسنة المعاصرين، فالشيخ محمد الأمين الشنقيطي ﷺ يقول: "فكأنّ الله يقول: يا عبدي لا يخطر في عقلك أن سمعي وبصري يشابهان أسماع المخلوقين وأبصارهم"(٤)، وفي أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: "فَكَأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِلَّذِينِ حَرَّمُوا بَعْضَ الْإِنَاثِ كَالْبَحَائِرِ وَالسَّوَائِبِ دُونَ بَعْضِهَا، وَحَرَّمُوا بَعْضَ الذُّكُورِ كَالْحَامِي دُونَ بَعْضِهَا: لَا يَخْلُو تَحْرِيمُكُمْ لِبَعْضِ مَا ذُكِرَ دُونَ بَعْضِهِ مِنْ أَنْ يَكُونَ مُعَلَّلاً بِعِلَّةٍ مَعْقُولَةٍ أَوْ تَعَبُّدِيًّا"(٥).

وفي العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير: "فكأن اللَّهَ يقولُ له: إن عَظُمَ وَشَقَّ عليكَ وأحزنكَ صدودُهم وتوليهم، وقد نهيتُكَ مرارًا عن هذا الحزنِ، فإن كانت لكَ طاقةٌ أو قدرةٌ فَأْتِ بها، وإن عجزتَ عن ذلك فَاعْلَمْ أن ذلك بِيَدِ اللَّهِ، فَكِلْ الأَمْرَ إليه، وَهَوِّنْ عليكَ"(٦).

وترى هذا التعبير: "كأن الله يقول" كثيرًا عند الشعراوي والعثيمين-رحمهما الله-.

قرآن يتلىٰ لإنسانية ترقىٰ

أسئلة تقويمية:

س١: ما الشروط والآداب التي يتوجب توفرها في المفسر؟

(١) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين (١/١١٢).

(٢) تفسير القاسمي (٩/٥٠٧).

(٣) التحرير والتنوير (١/١١١).

(٤) آداب البحث والمناظرة للشنقيطي (ص: ٣٦٧).

(٥) أضواء البيان (٣/٤٩٣).

(٦) العذب النمير (١/١٨٧).

س٢: اذكر أهم العلوم التي ينبغي للمفسر أن يلمَّ بها.

س٣: بيِّن أهمية علم التاريخ والآثار في فهم القرآن الكريم واكتشاف كنوزه.

س٤: ما المراد بقولنا: أن يكون الرجوع إلى كتاب الله ﷻ رجوعَ افتقار لا رجوعَ استظهار؟

س٥: اذكر أركان التفسير السبعة؟

س٦: ما الفرق بين التفسير والتدبر؟

بضائع المعرفة القرآنية
قرآن يتلىٰ لإنسانية ترقىٰ